إنعام كجه جي

لورنا

سنواتها مع جواد سليم

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks
التاسع والعشرون من أيار
لعام ألفين وأربعة عشر

دار الجديد

الرجاء شراء الكتاب من المكتبات

دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى!

مع تحيات فريق صفحة كتب

www.facebook.com/the.Boooks

إنعام كجه جي

لورنا

سنواتها مع جواد سليم

دار الجديد

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى، ١٩٩٨

تنفيذ وتوزيع شركة دار الجديد ش. م. م. • صندوق بريد: ١١/٥٢٢٢ بيروت ـ لبنان • هاتف: ٥٠ ٩٨ ٧٣ ـ ٧١ ٨١ ٧٣ (٠١) • بريد إلكتروني: Aljadeed@cyberia.net.lb • نضد النص: سناء سلامي وجميلة هزيمة • ضبطه على أُصوله: محمود عساف • انشاه كتاباً: علي حمدان • جميع الخطوط بريشة علي عاصي ما خلا اسم لورنا على الغلاف الأول فبريشة محمد سعيد الصكار • مُعالجة الصور: عمر حرقوص.

وَنَحْنُ في بغدادَ ؟ مِنْ طينٍ
يَعجُنُهُ الخزّافُ تِمثالا ،
دُنيا كأحْلامِ المجانينِ
وَنَحْنُ ألوانٌ عَلى لُجِّها المُرتَجِّ
أشلاءً وأوصالا ...

بدر شاكر السياب

facebook.com/the.boooks

إنعام كجي جه

لورنا

سنواتها مع جواد سليم

بمثابة تقديم

دخل اسم الرسامة البريطانية لورنا سليم تاريخ الفن التشكيلي المعاصر في العراق بعد حصولها على الجنسية العراقية أوائل السِّتينيّات، يوم كانت تقيم وتعمل في بغداد. وهي لم تكتسب هذه الجنسية بسبب اقترانها بالرسام والنحات العراقي الراحل جواد سليم، بل بعد وفاة زوجها، عندما منحها إياها الزعيم عبد الكريم قاسم.

وإذا كانت كتب ودراسات عديدة قد صدرت عن جواد سليم، بما يتناسب ومكانته الفنيّة الرفيعة بين الرواد، فإن هذا الكتيب مخصص للورنا، هذه «الأجنبية» التي انخرطت في المدرسة البغدادية للرسم خلال الخمسينيات، وتبنت ألوان الطقس البغدادي، وعايشت الطين والطوز والطابوق وفضلتها على ألوان الريف البريطاني الذي هي منه.

التقيت بالسيدة لورنا للمرة الأولى في حفل افتتاح معرضها الذي أقيم في صالة الكوفة بلندن ربيعَ ١٩٨٩. وعدت في اليوم التالي للافتتاح لأتملّى من اللوحات على مهل متسائلة عن السر الذي يجعل هذه الفنانة البريطانية تتخصص في رسم بغدادنا وتحفظ بريشتها محلات وحارات وأحياء كاملة امتدت إليها يد الهدم و«التجديد».

ثم جلست مع لورنا على انفراد، في القاعة، وكُلّي فضول لسماع تفاصيل لقائها وحياتها مع فنّاننا الكبير جواد. ولم أكن يومها أسعى إلى أكثر من مقابلة صحافية مثيرة. لكن ما سمعته منها في تلك الجلسة، على اقتضابه، فتح أمامي أبواباً مُفضية إلى ما هو أبعد وأوسع. كنت كَمَنْ مد يده إلى نخلة مثمرة متشهياً تمرة ناضجة، ثم إذا به يتشبث بالعذق كله.

بقيت مقابلة لورنا سليم محفوظة مع صورها بين أوراقي، أضن بها أن تنشر في الصحافة العربية المهاجرة، فلا تصل إلى من يعنيهم الأمر. إلى أن قامت حرب الخليج الثانية.

وفي ليلة رهيبة جلست أتابع خلالها مشاهد قصف بغداد على شاشة التلفزيون، وأنا في باريس بعيدة عن القذائف آلاف الكيلومترات، أحترق بناري الخاصة ولا أملك سوى الدعاء للأسماء والوجوه والأماكن الحبيبة التي تركتها هناك.

ولا أدري، لماذا تذكرت في تلك اللحظة البيوت التي اعتنت برسمها لورنا سليم. خيّل إليّ أنني أراها تتهدم وتتهاوى مرة ثانية، ثم تنهض من رمادها لتتراصف من جديد على قماش اللوحة، بعد إجلاء الغارة.

في الخريف الماضي اختمرت في ذهني فكرة هذا الكتاب. ولكن أين لورنا؟

سألت عنها في صالة الكوفة فقيل لي إنها تسكن قرية بعيدة عن لندن، وتكرّموا بإعطائي رقم هاتفها.

اتصلت بها من باريس فتذكرتني. أخبرتها بمرادي فلم تمانع. طلبت منها أن تعطيني اسم القرية التي تقيم فيها وعنوانها بالضبط لأتمكن من موافاتها إلى هناك.

سألتني باستنكار لطيف: «من قال لك إنني أقيم في قرية؟» ولم أفهم استنكارها إلاّ عندما وصلت إليها.

قالت إنها تقيم في منطقة لانوفر، التي هي في ضواحي أبرغفاني جنوب ويلز، غير بعيد عن نيوبورا.

وبمساعدة «البيت البريطاني» في باريس، حجزت في أقرب نزل إليها، وتوكلت.

وجدتها تقيم في بيت ريفي يشرف على مرج أخضر ساحر ترعى فيه الأغنام. لا جيران قريبين منها، ولا مواصلات عامة تقود إلى مكانها، والفوز بسيارة الأجرة الوحيدة العاملة إلى المنطقة يحتاج إلى قدرة قادر.

هَجَرتْ لورنا مسقط رأسها في شفيلد وجاءت إلى ويلز لتكون قريبة من ابنتها مريم التي يعمل زوجها في هذه المنطقة. إنهما تتقاسمان بيتاً صغيراً، تشغل لورنا جانبه المطل على الوادي، والمؤلف من فسحة للنوم والعمل والجلوس محاطة بنوافذ زجاجية كبيرة من ثلاث جهات.

في ذلك المكان الذي لم أتوقعه، والذي بَلَغْتُهُ بعد رحلة بالطائرة والقطار والسيارة، استأنفت حواري مع السيدة لورنا وأنا مسلحة بمئة وأربعين سؤالاً، وبشهية كبيرة للعذق الذي ذقت، قبل سنوات، ثمرة منه.

دار حوارنا بالإنكليزية، مع عبارات قليلة باللهجة العراقية. وقد استمتعت بحديثها مرتين. مرة أثناء التسجيل، ومرة أثناء نقل الأشرطة إلى الورق. وحاولت وأنا أترجم كلامها إلى العربية أن أكون شديدة الأمانة في نقل العبارات. لكن ما ستقرأون لا يسجل الحالة بالكامل. فهل يمكن للحرف المكتوب أن ينقل بُحَّةً طارئة على الصوت، أو قهقهة جذلى، أو سحابة عابرة في العينين؟

واعذروني لتوقفي عند تفاصيل كثيرة صغيرة. فهذا الكتاب ليس حكاية حب كبير فحسب، ولا صفحة من تاريخ فني، بل إضاءة لزمن جميل مضى، نحتاجُ اليومَ جميعاً، لا سيّما العراقيّون منّا، إلى استعادته بما يَسَعُنا من شَغَف...

إنعام كجه جي

باريس، آب ١٩٩٧

facebook.com/the.boooks

إنعام كجي جه

لورنا

سنواتها مع جواد سليم

الجدّ المجهول

أتخيل القصة تبدأ هكذا، مثل شريط سينمائي بالأسود والأبيض، تدور أحداثه في إنكلترا أواخر القرن الماضي:

فتىً قويُّ الجسم يسير في شارع ضيق، وهو يضع يديه في جيبي سرواله العريض ويصفّر لحناً شائعاً، يصادفه رجل أشيب الشعر، يتمعن فيه بعينين حادتين ثم يسأله: هل أنت ابن بوب بولينو؟

يهز الفتى رأسه، علامة النفي، دون أن يتوقف عن الصفير. لكن الرجل يصرّ على رأيه قائلاً؛ فالشبه بينه وبين بولينو كبير. ثم يواصل كل منهما سيره.

كان الفتى بحّاراً تنقّل على متون السفن التجارية منذ سن التاسعة، واعتاد أن يغفو تحت أشرعتها وهي تتجه شرقاً لكي تعود محملة بصناديق الشاي من سيلان وبالتوابل والبخور. لقد قيل له إنه ابن بوب بولينو. أما هو فلم يعرف لنفسه أباً غير البحر، هذا المتوحش العاتي.

بقي اسم بولينو أشبه باللغز الّذي تدور حوله التكهنات في الأجيال التالية من الأسرة. فهو ربما كان بحاراً إيطالياً أو إسبانياً كما يشير اسمه، وقد يكون تاه في البحار الدافئة وانقطعت أخباره بعد أن سئم كآبة السماء في بريطانيا، ملبياً نداء شمس لا تقاوم، هي ذاتها الّتي سحرت، بعد عقود من الزمان، حفيدته لورنا وقادتها إلى بغداد.

حين كبر ابن بوب بولينو تزوج طباخة كانت تعمل في فندق بلاك بوي المعروف في نوتنغهام. وأنجب الزوجان ابنة دعيت أليس، عملت في شبابها في مكتب للبريد، ثم تركته لتتزوج من معلم للموسيقى في شفيلد يدعى هنري هيلز ، ولتتفرغ لرعاية الطفلتين اللتين رزقت بهما.

لورنا هيلز هي ثانية الطفلتين، رأت النور في شفيلد، وسط إنكلترا، في العام ١٩٢٨، وأدركت جدّيها لأمها وسمعت منهما عن أسطورة بوب بولينو، لكنها لم تعرف جدّيها لأبيها، إذ ماتت الجدة ولورنا طفلة، وكان الجد قد فارق الحياة قبل ذلك، وكل ما تعرفه عنه أنه كان لندنياً يكسب عيشه من دَوْزَنَة آلات البيانو.

نشأت لورنا وحيدة أبويها بعد أن أودى مرض غامض بشقيقتها وهي دون العاشرة. ففي تلك السنوات العسيرة كان الناس يكتفون بإنجاب طفل واحد، فإذا أنجبوا الثاني جاء زيادة عن اللازم. أمّا من يذهب إلى حد إنجاب طفل ثالث فهو طائش أو معتوه.

هي إذاً سليلة بحارة وموسيقيين، تعلمت العزف على الكمان وهي صغيرة، لكنها لم تبرع فيه لأنها عسراء، ولأنها مالت إلى الرسم منذ طفولتها، ولم تكن أمها تبخل عليها بالأوراق والأصباغ.

بعد إنهائها المدرسة المتوسطة، أرادت لورنا دخول الفرع العلمي، فقد كانت معجبة ببنت الجيران ٱلَّتي تدرس في هذا الفرع وتقوم بأبحاث مثيرة حول أساليب حفظ الأطعمة. وقد داومت فعلاً في الفرع العلمي لمدة أسبوع، لكنها وجدته صعباً، فانصاعت إلى نصيحة مديرة المدرسة ٱلَّتي شجعتها على الانتقال إلى الفرع الأدبي لأن علاماتها في اللغة الإنكليزية والرسم كانت جيدة.

ومع قيام الحرب العالمية الثانية، دخلت لورنا المدرسة الثانوية وأنهتها مع انتهاء الحرب، لذلك لم تعرف خلال تلك السنوات المضطربة أي حياة جانبية أخرى. لقد بقيت مع والديها في شفيلد ٱلَّتي دَمَّرَت القنابل وسطها التجاري كلياً، وكان عليهم أن يلزموا الملجأ كل ليلة، فيستبد النعاس بالبنت ٱلَّتي تروح تحلم بفراشها الدافىء، وباللوحة ٱلَّتي لم تكتمل على منضدتها.

استمر قصف شفيلد طيلة السنة الأولى من الحرب، وعرفت لورنا معنى الموت لأول مرة عندما فقدت احدى زميلات الدراسة في واحدة من الغارات. لكن الطائرات توقفت عن التحليق في سماء المدينة مع أواخر ١٩٤١، مخلِّفة وراءها ذكرياتِ رُعْبِها في نفوس تلاميذ المدارس ٱلَّذين كانوا يذهبون إلى الصفوف كلّ يوم، وهم يحملون الأقنعة الواقية من الغازات.

حين انتهت الحرب أخيراً، كانت الطالبة لورنا هيلز قد أنهت الفرع الأدبي بنجاح وتفوق، بحيث إنها فازت بمنحة من مديرية التعليم في شفيلد لمواصلة دراستها الجامعية. وهكذا تقدّمت بأوراقها إلى كلية لإعداد المعلمين في ريدينغ، واستدعيت للمقابلة، وهناك اكتشفت أن الكلية غير مختلطة، أي للبنات فقط، فلم يَرُقْ لها ذلك، وتمنّت لنفسها الفشل في اجتياز المقابلة.

سألوها : لماذا تريدين أن تصبحي معلمة؟

قالت: «أنا، في الحقيقة، لا أريد أن أصبح معلمة».

وكانت النتيجة أنها لم تقبل في تلك الكلية.

ثم بعثت بعلاماتها وبعض رسومها إلى كلية سليد للفنون الجميلة في لندن، فأرسلوا إليها قراراً بقبولها طالبة في Slade School بدون حاجة إلى مقابلة مسبقة.

لم يكن القبول في سليد سهلاً لولا أنها كانت السنة الدراسية الّتي تلت الحرب مباشرة، وقد عادت هيئة التدريس إلى لندن من أكسفورد، والمقاعد شاغرة في الصفوف، لأن العديد من الطلاب القدامى ما زالوا مجندين في الجيش. لذلك وافقت الإدارة على قبول مجموعة من الطلبة الجدد، دون اشتراط المرور بدورة تحضيرية يتلقى فيها الطالب مبادىء الفن، كما هي العادة في تلك الكلية.

إنه الوداع، إذاً، يا مدينة المعادن والرماد، يا شفيلد. لقد حان موسم النزول المرتقب إلى الدنيا الرحبة في لندن، مع كل ما يرتعش في الفكر والقلب من توق إلى المغامرة.

وماذا عن بوب بولينو، ذلك الجد المجهول الّذي لا يملك أحد إثبات وجوده؟

لقد بقي لغزاً يسكن ذاكرة لورنا سنوات عديدة. وعندما حاولت ابنة خالتها، ذات يوم، تقصّي الحقيقة، عثرت على شهادة ميلاد ابنة البحار، لكن الخانة المخصصة لاسم الأب كانت ... خالية!

facebook.com/the.boooks

إنعام كجي جه

لورنا

سنواتها مع جواد سليم

سليد سكول

جزعت والدة لورنا لأن ابنتها الوحيدة ستنتقل للعيش في العاصمة وهي لا تزال دون السابعة عشرة من عمرها.

والمثير في تلك الرحلة الأولى من شفيلد إلى لندن، أن لورنا قامت بها وحيدة. وهو أمر ما زال يبدو غريباً لها حتى اليوم. لماذا لم يرافقها أبوها وأمها، أو أحدهما على الأقل؟

كانت قد صعدت مع حقيبتها الصغيرة إلى واحد من تلك القطارات العتيقة الّتي تنفث الدخان بكثافة، بحيث ينزل المسافر في نهاية الرحلة وهو متسخ الوجه والثياب.

نزلت لورنا في محطة سانت بانكراس المزدحمة والرمادية الّتي لا تشبه الحلم الوردي المرسوم في البال. هل يعقل أن تكون هذه المدينة المهدمة هي لندن؟

قصفت العاصمة كثيراً خلال الحرب، وتهدم نصف الحي الجامعي الّذي تقع فيه كلية سليد، ولم يعد هناك بيت في الحرم الجامعي لاستقبال الطلبة القادمين من المدن الأخرى.

عثرت لورنا على غرفة في مكان بعيد عن الكلية، لدى زوجين في السبعين. من العمر، لهما ابنة في حوالى الأربعين، متخلّفة عقلياً. وكان من المستحيل التفاهم مع صاحب البيت لأنه كان أصم، لا يسمع الكلام. أما زوجته فقد فقدت عادة التعاطي مع الناس لأنها لم تكن تغادر بيتها بسبب مرض ابنتها.

مع تلك الأسرة الصغيرة المنكمشة على نفسها، أقامت لورنا حال وصولها لندن، وكانت مضيفتها لا تتوقف عن سرد أحوال الحرب ومعاناتها في نقل ابنتها المشلولة إلى الملجأ عند انطلاق صفّارات الإنذار.

كانت أوراق خريف ١٩٤٥ في أول اصفرارها عند وصول لورنا، وقد بقيت في ذلك البيت لحين حلول عيد الميلاد، وتعري الأشجار من أوراقها. حيثُ أُعِدّ مكان لاستقبال طلبة سليد سكول، في مواجهة مبنى الكلية، في بلومزبوري.

في الأصل كان ذلك السكن المرتجل فندقين قديمين متهالكين جرى ترميمُهُما وضمُّهما إلى بعض. وبسبب لهفة هؤلاء إلى

السكن الجديد القريب من الكلية، انتقل الكثيرون منهم إليه قبل اكتمال إمدادات الماء والكهرباء، بل إن الطلاب تولوا أعمال التنظيف بأنفسهم. وقد كانت لورنا واحدة من أولئك المتلهفين للسكن في بيت جامعي، خصوصاً وأنه مختلط. ولم تكن المساكن الجامعية المختلطة شائعة في لندن آنذاك، لكن طلاب سليد سكول وطالباتها سكنوا في المبنى دون أن يعترض أحد على الأمر.

بعد سنتين، وقع حادث عكّر صفو ذلك الاختلاط. فقد ألقت إحدى السيدات بنفسها في نهر التَّيمس بقصد الانتحار، ورآها شاب كان يمر بالمكان، فألقى بنفسه وراءها، بكل شجاعة، وانتشلها من الغرق.

لحسن الحظّ أو لسوئه، كان المنقذ الشجاع طالباً من سكان القسم الداخلي التابع لسليد سكول. وهكذا هبط الصحافيون والمصورون ذات صباح على المكان لإجراء مقابلات مع البطل، وخشيت الإدارة أن تكتب الصحافة شيئاً عن الشباب والشابات ٱلَّذين يقيمون في مبنى مشترك، فصدر قرار بفصل الجنسين، كلّاً في جانب من المبنى، وكان لكل جانب باب خاص به، ما إن يجتازه الطلاب والطالبات حتى يختلطوا مجدداً.

بطبيعة الحال، لم يكن الفوز بمقعد في سليد سكول فرصة للتمتع بمباهج الحياة المختلطة في لندن فحسب، بل كان هناك عمل كثير على الطالب إنجازه. وهو عمل يشترط موهبة خاصة، وليس جهداً ووقتاً فقط.

بالنسبة للورنا هيلز، فإنها حتى دخولها سليد، لم تكن تعرف تماماً معنى أن يكون المرء رسّاماً. فالموضوعات ٱلَّتي كانت ترسمها في شفيلد محدودة، وأحياناً كانت ترسم أشياء من المخيلة، متأثرة بالرومانسية ٱلَّتي تطبع عمر المراهقة. ثم إنها كانت تلون رسومها بالألوان المائية، ولم تجرّب الأصباغ الزيتية، ولم تُتَحْ لها من قبل فرص كثيرة للخروج لرسم الطبيعة. وبسبب الحرب وفقدان وقود السيارات، كان الخروج إلى الريف حلماً مؤجلاً. لقد احتفظ الناس بسياراتهم في المرائب طيلة سنوات الحرب، والمرة الوحيدة ٱلَّتي أتيح فيها للورنا مغادرة شفيلد كانت عندما ذهبت لتزور صديقة تقيم في لينكولن، على مبعدة ساعتين بالقطار تقريباً، حيث رسمت كاتدرائية البلدة من الداخل.

لم تحتفظ لورنا من رسومها الأولى إلّا برسم الكاتدرائية، وبرسم آخر لآلة الكمان ٱلَّتي كانت تتعلم العزف عليها. لهذا، فإنها في سليد سكول شعرت وكأنها تبدأ من جديد. ولأنها لم تكن تملك فكرة واضحة عن نوع العمل ٱلَّذي ينتظرها في كلية متخصصة في الفن التشكيلي فلقد أضاعت السنة الأولى، وهي تحاول أن تتأقلم مع وجودها في لندن وأن تستوعب معنى قبولها في سليد، مدرسة الموهوبين من الفنانين.

اللقاء بجواد

تعرفت البنت الخجول في تلك السنة الدراسية الأولى على صديق أو صديقين. لكنها لم تمر بعلاقة حقيقية قبل لقائها بزميل عربي جاء من بغداد لدراسة النحت في سليد، اسمه جواد سليم.

كانت لورنا قد نزلت إلى لندن في أيلول ١٩٤٥، أمّا هو فجاء إليها في شباط ١٩٤٦ على أمل أن يدرس في كلية تشلسي بوليتكنيك.

عندما ذهب الشاب العراقي للمدوامة في تلك الكلية، وجد أن لكل طالب بطاقة يتوجب عليه أن يخرمها عند الدخول والخروج لضبط ساعات الدوام، على غرار ما يفعله العمال في المصانع. ولأن جواد سليم لم يكن طالباً عادياً، بل ذلك الفنان البوهيمي المتمرد على القيود، فإنه لم يحتمل نظام كلية تشلسي أكثر من أسبوع، وسارع ينقل أوراقه إلى سليد سكول ... تماماً مثلما هربت لورنا من كلية المعلمات في ريدينغ.

لم تجمع الظروف البنت الإنكليزية والولد العراقي في صف واحد. فهي في قسم الرسم وهو في قسم النحت، ولكل قسم مشغله الخاص به، لكنهما التقيا على رغم تباعد الصفوف.

كانت للورنا صديقة تدعى مورين، خُطبت إلى طالب في قسم النحت يدعى نك، وكان صديقاً لجواد، فكان لا بد لدائرة التعارف من أن تكتمل.

ولأن جواداً كان في تلك الفترة يعزف على الغيتار، ولأنها كانت تعزف ـ برداءة شديدة لكنها تعزف ـ على الكمان، فقد جمعتهما الهواية الموسيقية المشتركة وصارا يلتقيان ليعزفا سوية.

جاء جواد مبكراً إلى لندن ليتعلم الإنكليزية تمهيداً لبدء الدراسة في أيلول، فالتقى لورنا في أواخر تلك السنة، ووجد فيها البساطة الّتي كان يبحث عنها.

أمّا هي، فعندما تحاول اليوم، بعد نصف قرن على ذلك اللقاء، أن تتذكر شكله يومذاك، فإنها لا تجده مختلفاً عما آل إليه في أخريات حياته. ولعل البشر الّذين يكبرون

الواحد مع الآخر لا يلاحظون التغييرات الّتي يتركها الزمان على شركائهم.

إنها تصفه اليوم بأنه كان قريباً جداً من الانطباع الّذي في مخيلة الناس عن الفنان البوهيمي، سواء في ثيابه أو في تصرفاته أو أقواله. ولهذا السبب لم يكن يبدو عراقياً بشكل واضح، بل كان يحاول الابتعاد عن أنماط التصرفات التقليدية للطلبة العرب، ويسعى إلى رسم شخصية خاصة به، متفتحة على كل ما هو جديد ومختلف.

انجذبت لورنا إلى ذلك الطالب الّذي لا يشبه الآخرين، والمـيّال ميلاً شديداً إلى الفكاهة والمهتم بالموسيقى والشعر وحفلات الباليه.

ثم إن جواداً لم يكن، مثلها، فناناً مبتدئاً. بل كان قد سافر إلى باريس في العام ١٩٣٨ ودرس لمدة سنة في معهد البوزار ولما قامت الحرب استدعت بغداد طلابها المبعوثين إلى فرنسا، فانتقل جواد إلى إيطاليا ليدرس سنة أخرى في أكاديمية روما للفنون. فلما دخلت إيطاليا الحرب أيضاً اضطر للعودة إلى بغداد بانتظار فرصة جديدة.

وقد كانت فترة الانتظار تلك مفيدة لجواد، إذ عمل خلالها في المتحف العراقي، يرمم الجداريات الآشورية المتصدعة ويستلهم منها ينابيع إبداع متجدد، لا يقطع جسوره مع الأصول.

إنها أيضاً الفترة الّتي تعرف فيها جواد وزملاؤه من الفنانين العراقيين، على مجموعة من الرسامين البولونيين الّذين وصلوا بغداد مع الحلفاء أثناء الحرب . وقد تركت لقاءاته بأولئك البولونيين آثارها الإيجابية على تكوينه الفني، وفتحت أمامه آفاق مهارات جديدة في استعمال الألوان.

أما الغيتار، فكان جواد قد تعلم العزف عليه على يد فنان تركي أقام في بغداد، اسمه مسيو جميل، وأخذه الولع بهذه الآلة بحيث بدأ يجمع كل ما يكتب عنها في الصحف، ويحتفظ بصور مشاهير العازفين العالميين عليها. ولعل ولع جواد بالغيتار جاء من التشابه بينه وبين العود، هذه الآلة التراثية الّتي كان سلفه الفنان يحيى الواسطي بارعاً في العزف عليها.

وعندما تعرفت لورنا عليه، كان جواد يمتلك غيتاراً إيطالياً صغيراً ولطيفاً، لعله اشتراه من روما قبل مجيئه إلى لندن. وقد اقتنى بعد ذلك غيتارين آخرين، واستعار ثياباً إسبانية من تلك الّتي يلبسها راقصو الفلامنكو، لكي يرتديها في حفلة تنكّرية أقيمت للطلبة الجدد في الكلية.

تعلم جواد الفلامنكو من عازف إسباني يدعى السنيور بيبي، كان يعمل نادلاً في أحد مطاعم لندن، وكانت زوجة بيبي تغني في المطعم نفسه. وبعد ذلك انتمى إلى جمعية لعازفي الغيتار، لكنه لم يبلغ في العزف مستوىً متميزاً، بل استمر يعزف مثل

الَّذين يتعلمون العزف متأخرين، أي في سنّ تكون فيها اليدان قد أخذتا شكلهما النهائي. ولو أتيح لجواد أن يتعلم الغيتار وهو مراهق، لأصبح عازفاً ماهراً، خصوصاً وأنه كان حريصاً على التمارين كل يوم.

ساهمت الهوايات المشتركة في توطيد الصداقة بين لورنا وجواد، فكانا يذهبان معاً إلى العروض المسرحية والراقصة في أمسيات السبت، حينما يتوفر لهما ثمن التذاكر. أما الأمسيات الأخرى، فكانا يمضيانها في الأحاديث الفنية، أو الالتقاء بالأصدقاء الَّذين يدرسون في الكلية نفسها.

في سليد سكول، كان هناك طالبان عراقيان قبل جواد، هما عطا صبري وحافظ الدروبي. وقد ارتأى الدروبي الانتقال إلى كلية غولد سميث لأنَّها تمنح شهادة مختلفة.

وما زالت لورنا تذكر، بالكثير من الودّ، كيف جنّ جنون عطا صبري عندما عاد إلى بغداد واكتشف أن شهادة حافظ الدروبي قد تمت معادلتها بأفضل من شهادته، وهي تؤهله بالتالي لراتب وظيفي أعلى!

يبدأ الطالب في سليد بتعلم التخطيط. وعندما يتقدم في عمله ويشعر أنه بات متمكناً من فنه، يعرض تخطيطاته على أستاذه، فإذا راقت لهذا الأخير، يسمح للطالب بالانتقال إلى صف التصوير الحي، أي بوجود موديل أمامه. وبعد بلوغ درجة كافية من الإتقان، يسمح له بالشروع في التلوين بالزيت، بدون موديل أولاً، ثم في مرحلة متقدمة، بوجود الموديل.

لا تذكر لورنا أنهم علموها أكثر من ذلك. فقد كانت سليد نموذجاً للمعهد المحافظ على التقاليد القديمة في الرسم، وكل ما ينجزه الطالب خلال سنوات الدراسة لا يتعدى رسم الموديل الحي، إلى جانب بعض التكوينات، من نوع االطبيعة الجامدة.

أحياناً، بعد انصراف المعلمين، كانت لورنا ورفاقها يداومون في المساء لكي يتمرنوا بمفردهم ويكتسبوا مهارة أكبر. ففي تلك السنوات الَّتي أعقبت الحرب، ضاقت مجالات التسلية وتمضية الوقت في لندن، ولم يكن هناك الكثير مما يجتذب الطلاب إلى خارج الكلية، فكانوا يشتركون في جمع مبالغ صغيرة يستأجرون بها الموديل بعد ساعات الدوام الصباحي.

حين جاء وقت الانتقال من مرحلة التخطيط إلى مرحلة استخدام الأصباغ الزيتية، وجدت لورنا نفسها في ورطة حقيقية، فهي لم تكن تُحسن التعامل مع الزيت. وكأي مبتدئة، كانت الألوان تلوث يديها وشعرها وثيابها، فإذا بها في آخر الدرس أشبه بالمهرج ذي الأنف الأحمر.

ذات مساء، وقد ضايقتها قلة حيلتها في السيطرة على الألوان، تركت لورنا قاعة الرسم يائسة وركضت تهبط الدرج إلى الطابق الأرضي عائدة إلى غرفتها. وهناك،

على الدرج، التقت بعطا صبري آلَّذي كان صاعداً إلى قاعة الدرس.

سألها عن سبب اضطرابها، فأفرغت هموم قلبها أمامه قائلة إنها غير قادرة على السيطرة على الألوان، وإنها لا تصلح لشيء!

ابتسم عطا صبري ابتسامة العارف الخبير، وقال بثقة كبيرة: ليس هناك ما هو أسهل من التلوين، ثم تكرّم على زميلته الحائرة بوصفة سحرية تقوم على طلاء اللوحة باللون الكستنائي، ثم وضع الألوان الأخرى بالتدريج فوق ذلك اللون الأساسي.

بالنسبة له، كان الأمر هيناً جداً. أما بالنسبة للورنا، فقد وجدت أن من اللطف أن يكشف لها عطا صبري أسرار حرفته، لكن وصفته تلك في التلوين تبقى غريبة جداً.

قبل سفره إلى لندن، كان عطا صبري قد عقد قرانه على بنت في بغداد تدعى شريفة. وما زالت لورنا إلى اليوم تتذكرها إذ أصبحتا صديقتين بعد انتقال لورنا للعيش في بغداد، ونمت بينهما محبة حقيقية.

وبسبب ارتباطه بخطيبة في بلده، لم يكن عطا صبري يخرج مع زميلاته الطالبات أو يشارك في السهرات. أما الدروبي، فلم تكن لورنا تراه كثيراً بعد انتقاله إلى كلية أخرى، لكن جواداً كان يتواعد معه في الخارج، بحكم أنه أقام بعيداً عن القسم الداخلي للطلبة الدارسين في سليد.

لقد كان جواد الطالب العربي الأول آلَّذي تتعرف عليه لورنا عن كثب. وهي، قبله، لم تكن تعرف الكثير عن العراق، ولا عن العرب عموماً. لقد استهواها فيه أسلوبه في التحدث باللغة الإنكليزية، إذ لاحظت أنه، مثل كل القادمين من الشرق، ينطق كل حرف من حروف الكلمة، بشكل بدا بالنسبة إليها جذاباً ومختلفاً عن آلَّذين يبتلعون نصف الحروف.

فيما بعد، صار في مقدورها أن تميز الطلاب العرب من خلال لكنتهم الخاصة، بل إنها، بشيء من الانتباه، أصبحت قادرة على معرفة البلد العربي آلَّذي جاء منه المتحدث، لأن لكنة أهل مصر وهم يتحدثون الإنكليزية تختلف عن لكنة أهل العراق، مثلاً، وعن لكنة السوريين.

لكن لورنا لم تتعلم العربية مع جواد، وهذا ما جعلها تشعر بالأسف طيلة حياتها؛ فبدل العربية تعلمت منه... الإيطالية!

لقد أدركت منذ لقائها الأول به أنها أمام شخص تستطيع أن تثق به، وليس من طبعه التضليل، وشعرت أنه صادق ومنفتح جداً على الأصدقاء، بحيث إن صداقتها له نمت بالتدريج حتى أصبحت حباً.

لا تذكر أنها قالت له في تلك الأيام إنها تحبه، ولا تذكر أنه صارحها بأنه يحبها أو يريد أن يتزوجها، لكنهما كانا مدركين لإحساس الحبّ في داخلهما، ويشعران

أن طريقهما باتت واحدة في الآتي من الأيام.

ولورنا ليست من ذلك النوع الّذي يؤمن كثيراً بالقدر. وهي لا تعير أهمية بالغة للمصائر الّتي تتقارب وتتقاطع أو تتباعد وتتنافر. صحيح أن الحرب قد فرضت على جواد أن يترك باريس إلى روما، ثم يترك روما عائداً إلى بغداد، لكي يمكث فترة ثم يختار لندن، هذه المرة، لمواصلة دراسته، إلّا أن لورنا لا ترى أصابع القدر في كل تلك التنقلات، ولا في تحول جواد من مدرسة تشلسي إلى سليد، ولا في صداقته لخطيب صديقتها، بل تعتبر أن هذه المسارات الّتي قادته إليها وقادتها إليه، مجرّد حظّ سعيد. إنها تقول: من حظنا أننا التقينا. فلو أبديت شطارة أكبر في الفرع العلمي لما وضعت قدمي في سليد يوماً!

المهم أنهما التقيا، وأن لورنا أنهت سنوات الدراسة الثلاث في سليد بنجاح، وانتقلت إلى كلية أخرى لتحضير سنة رابعة تؤهلها للتعليم، فقد كانت مدة منحتها الدراسية أربع سنوات.

ولأن جواداً التحق بسليد بعدها بسنة، فقد كان متوقعاً أن ينتهيا من الدراسة في وقت واحد. لكن الّذي حصل أن صحة جواد اعتلّت بعد وصوله إلى لندن، وانقطع فترة عن الدراسة لإصابته بفقر الدم وبنوع من الحساسية ضد الأدوية. وقد كتب بذلك إلى بغداد فجاءت الموافقة على منحه سنة دراسية إضافية.

وبرغم اعتلال صحته، استطاع جواد أن ينهي الدراسة في سنتين بدلاً من ثلاث، وقرر أن يستغل السنة الإضافية الممنوحة له في إنجاز أعماله الفنية الخاصة.

لكنه حالما حصل على شهادة التخرج في سليد، جاءه إخطار من بغداد يطالبه بالعودة إلى الوطن، طالما أنه قد أنهى الدراسة المتعاقد عليها. ولم يجد جواد مفرّاً من الانصياع للإخطار.

عندما حان وقت عودته إلى العراق في العام ١٩٤٩، قال للورنا إنه يرغب في الزواج بها، وأخذا القطار سوية إلى شفيلد ليطلبها من أبيها، حسب الأصول. ولعل تلك واحدة من المرات القليلة الّتي سار فيها جواد وفق التقاليد المرعية، بكل طيب خاطر.

أما الوالدان، فكانا يعرفان صديق ابنتهما من زيارات سابقة وعطلات أمضاها في ضيافتهما، وكانا يحبانه ويعجبان بثقافته وموهبته الفنية. لكنهما لم يكونا راغبين في أن ترحل ابنتهما الوحيدة إلى آخر الدنيا.

على أية حال، كانت قوانين البعثات العراقية تمنع الطالب من الزواج أثناء سنوات الدراسة في الخارج، ولا بد من أن يعود إلى بغداد أولاً، ويفكّ ارتباطه بدائرة البعثات قبل أن يقدم على الزواج. وقد اغتنم والد لورنا هذا الإشكال، وقال لجواد: عُدْ إلى بلدك

facebook.com/the.boooks

أولاً أيها الشاب، فإذا شعرت هناك أنك ما زلت راغباً في الزواج من ابنتي... يكون لكل حادث حديث.

عاد جواد إلى بلده، وكتب إلى لورنا من بغداد يقول: لا أدري لماذا دعوتك للمجيء إلى هذا المكان المُسْتَعِر مثل فرن كبير، حيث الغبار يغطي الأشجار والشوارع وحافّات النوافذ وأهداب العيون وكل الأشياء...

والغريب أنها لم تحتفظ بأيّ من رسائله إليها. لقد أتلفتها كلها ذات يوم بعد أن صار يؤلمها ما في تلك الرسائل من حميمية. أما رسائلها إليه، فما زالت موجودة.

بقيت لورنا في لندن سنة بعد جواد، عملت خلالها في التدريس، ثم تركت كل شيء ولحقت به إلى بغداد، المدينة الّتي يرنّ اسمها في الأذن مثل رنين دنانير الخلفاء الذهبية في ألف ليلة وليلة.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

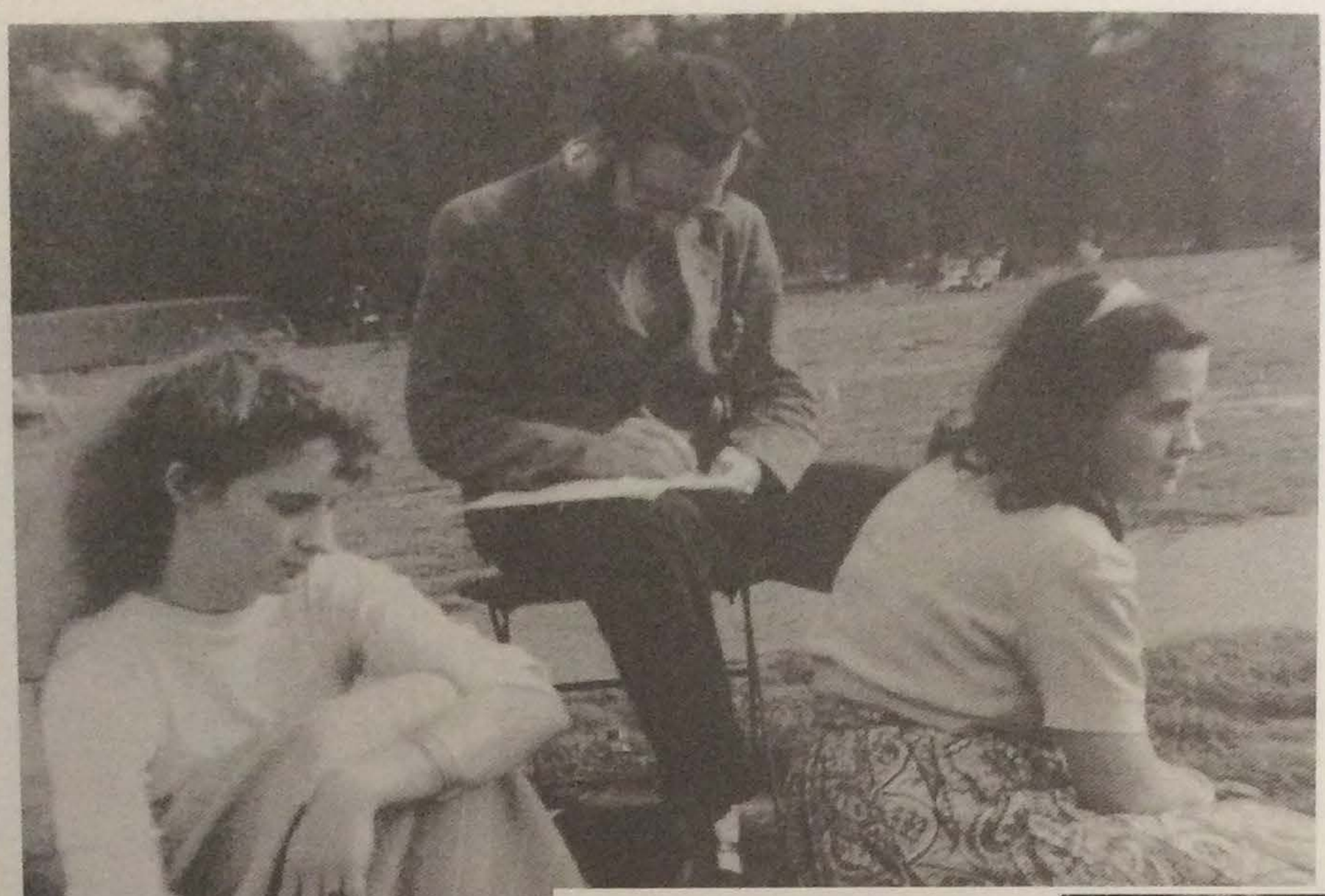

لورنا بصحبة نك ومورين اللذين عرّفاها على جواد.

لورنا وجواد، بعدسة نك، أمام بيت الطلبة في بلوزبوري.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

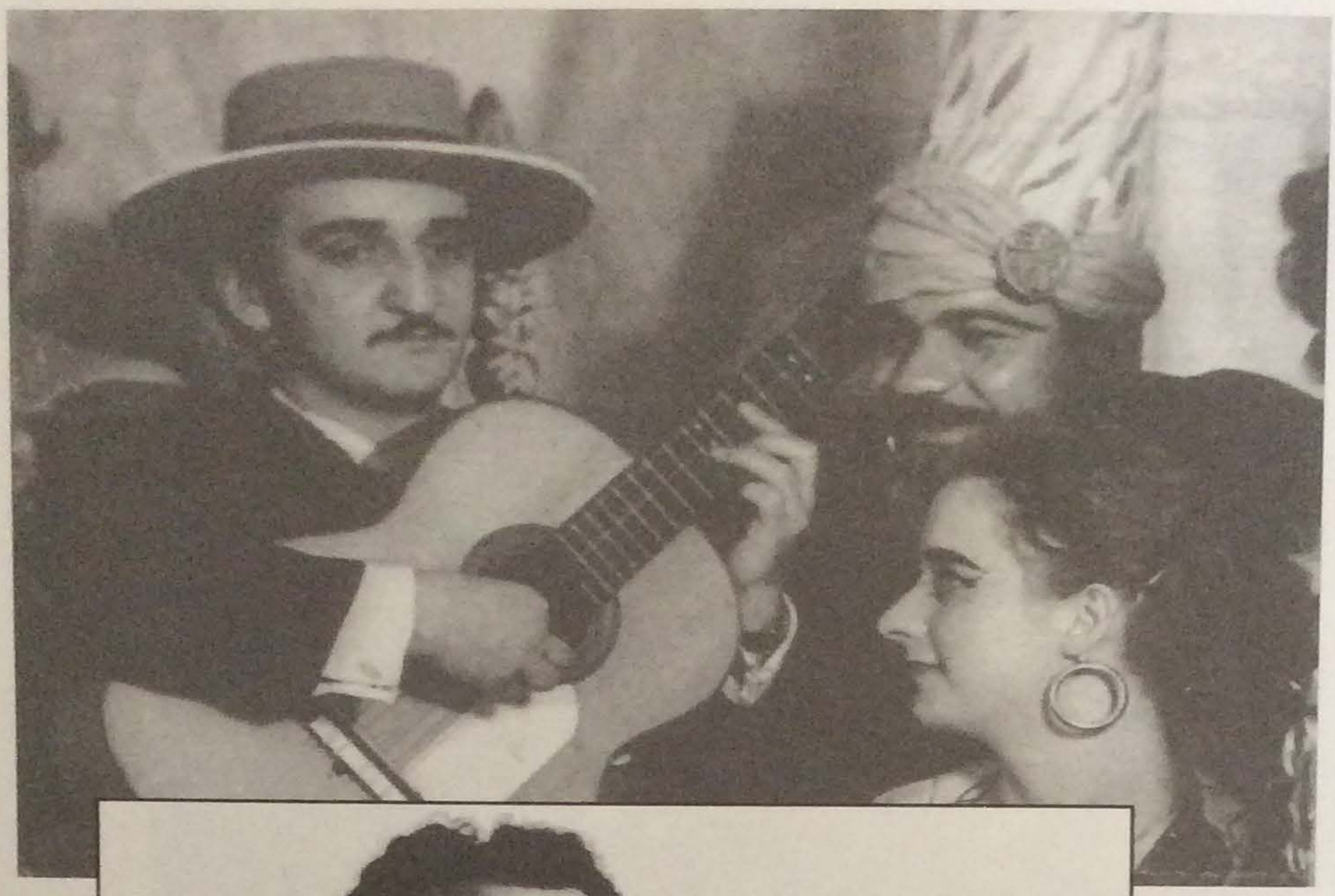

لورنا بصحبة جواد وحسن الجرجفجي خلال حفلة بمناسبة عيد الميلاد.

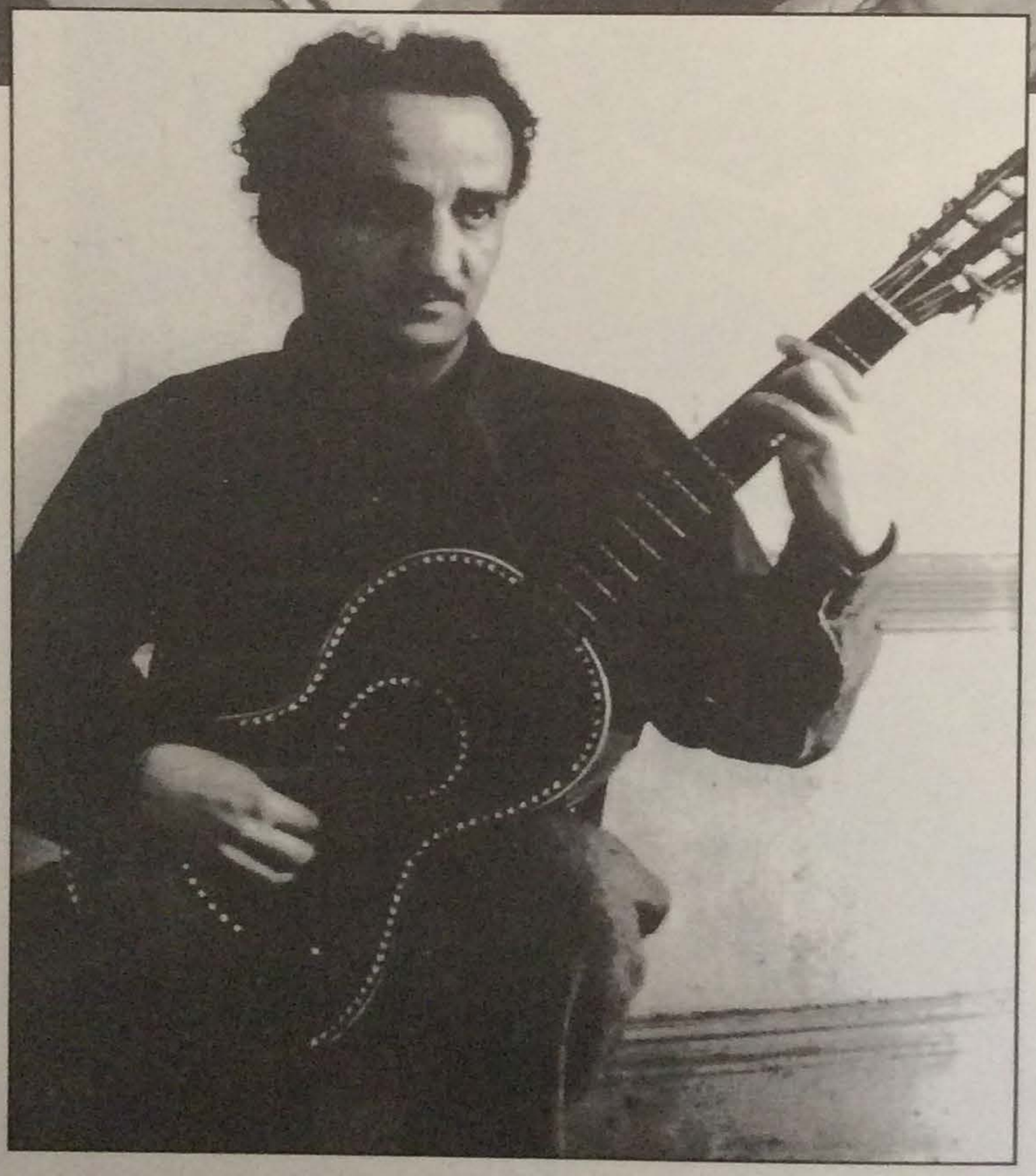

جواد عازف الغيتار.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

حفلة في سليد سكول ويبدو جواد مداعباً وجه لورنا.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

«الجميلة والوحش» بمناسبة حفلة تنكرية في سليد سكول.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

العاشقان في هامستيد هيث بارك.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

لورنا في بغداد

في الساعة الثانية بعد الظهر من أحد أيام أيلول ١٩٥٠، حطّت الطائرة بلورنا هيلز في مطار بغداد القديم، لتكتشف أن أحداً لم يكن في استقبالها.

وقفت الشابة الإنكليزية النحيلة الطويلة وحيدة في الصالة الّتي بدأت تخلو من جمهرة المسافرين والمستقبلين، وكان فستانها الصيفي البسيط يكاد يلتصق بجسمها من شدة الحرّ، لا تؤنس غربتها سوى حقيبتها الكرتونية الّتي جاءت بها من لندن، وإحساسها بأن هذه الأرض الساخنة الّتي تقف عليها هي أرض جواد.

لم يكن معها نقود محلية، وكل مكاتب المطار مغلقة في ساعات القيلولة، وليس في الأرجاء سوى بستاني يعمل في باحة المطار الخارجية، جلس يمسح عرقه في الظل.

توجهت لورنا نحوه تطلب المساعدة، فهبّ يلبي الطلب وقد فهم محنتها دون أن يفهم كلمة مما تقول، وحمل حقيبتها وراح يتبعها إلى الخارج.

ها هو، لحسن الحظ، مكتب صغير مفتوح الشباك لشركة توماس كوك، ووراء الشباك رجل لطيف يتكلم الإنكليزية، سأل المسافرة التائهة عن وجهتها، فقالت إنّها جاءت للقاء فنان يدعى جواد سليم.

جواد؟ من لا يعرف جواداً هنا! وأسرع الرجل يتّصل به بالهاتف ليبلغه بأن إنكليزية شابة مسكينة تبحث عنه في تلك الظهيرة القائظة.

فيما بعد، قال لها جواد إنّه كان قد ذهب لينتظرها في المطار حسب الموعد المعلن لوصول الطائرة، وقد أخذ معه في سيارته البيك آب العتيقة بضعة أصدقاء، بينهم سعيد مظلوم، زميله المعماري الّذي كان متزوجاً من إنكليزية. وكانت لورنا قد أرسلت إلى زوجة سعيد تخطرها بسفرها إلى بغداد.

والّذي حدث، أن نوري السعيد كان عائداً من لندن على الطائرة نفسها، وقد جاءت جمهرة من الموظفين والمعارف للترحيب بعودته بعد أن استُدعي على عجل لتشكيل حكومة جديدة.

كانت لورنا أول من غادر الطائرة، ثم

ضاعت في المعمعة، وظن جواد أنها تخلّفت عن السفر لسبب من الأسباب، دون أن تخطره بذلك. وفي لحظة إحباط، لم يكلف جواد نفسه عناء التأكد من قائمة المسافرين، فقفز إلى سيارته مع من كان معه، وعاد غاضباً إلى البيت، ليفاجأ بهاتف يعلمه أن لورنا هنا.

ركبت لورنا في البيك آب ماركة هلمن إلى جانب جواد، وتركت حقيبتها في الخلف، وراحت تنقل البصر بين حبيبها الّذي اشتاقت إليه من جهة، وبين معالم المدينة الّتي انكسرت عنها حدة الشمس قليلاً. كانت الشوارع غير مزدحمة، والبيوت واطئة تكاد تختفي وراء أشجار الحمضيات، وهناك الكثير من النخيل في المساحات الخالية من البناء. إنّ لون الأرض البني هو الطاغي هنا، بل إنّه يكاد يلفّ الأفق والسماء أيضاً، ويصبغ الهواء، وينسجم مع وجوه الناس الّتي لفحتها شمس لم تعرف لورنا مثلها من قبل.

وهي، اليوم، حين تتذكر انتقالها الأول بالسيارة مع جواد من المطار، إلى بيت الأسرة في الوزيرية، لا تملك إلّا أن تستكمل الحديث برواية حكاية تلك البيك آب. فلكل شيء في بغداد حكاية، ولكل حكاية خيط ينبثق من فكرة ما.

تقول لورنا: كان جواد قد اشترى تلك السيارة من يهودي غادر العراق دون أن ينقل ملكيتها إلى اسم مالكها الجديد. وقد بقينا نتنقل بالسيارة لمدة سنة تقريباً بعد حلولي في بغداد، إلى أن أوقفنا شرطي المرور، ذات يوم، في شارع الرشيد، ودار حول السيارة عدة دورات، ثم نظر إلينا بارتياب وهو يقول: إنّ هذا البيك آب لفلان ابن فلان اليهودي. ولما كان جواد لا يملك ورقة تثبت شراءه لها، فقد دعانا الشرطي إلى الترجل منها، واضعاً اليد عليها، تاركاً إيانا واقفين وسط الشارع نرمق بحسرة السيّارة الّتي صودرت منّا.

توجهت السيّارة إلى الوزيرية حيث كانت أم جواد قد ابتنت بيتاً وضعت فيه كل ما تملك، بعد أن استملكت الدولة بيتهم السابق في حيّ البارودية، وأزالته ضمن المناطق الّتي أزيلت لإقامة طريق جديدة.

كان الحاج محمد سليم الموصلي، والد جواد، قد فارق الحياة قبل سنتين أو ثلاث، ولم يبق في البيت مع الوالدة سوى جواد وشقيقه الأصغر نزار. أمّا شقيقتهما نزيهة فكانت آنذاك في باريس، تدرس الفنون الجميلة، وقد جاء وجود لورنا ليشيع في البيت نسمة أنثوية خاصة.

عندما أدرك نزار أن أخاه ينوي الارتباط بالضيفة الإنكليزية، كتب إليه رسالة بما معناه: لماذا تريد الزواج بأجنبية؟ أليس من الأفضل اختيار عروس عراقية طيبة... وخوش بنيّة؟

ويبدو أن نزاراً كتب تلك الرسالة لأنه تحرّج من مواجهة أخيه الأكبر سنّاً بهذا

الرأي. أما جواد، فلم يَرُدَّ على شقيقه الأصغر، بل واصل التعامل معه وكأن شيئاً لم يكن.

ونزار الّذي يصغر جواداً بخمس سنوات، كان طالباً في كلية الحقوق، وقد التحق بالسلك الدبلوماسي بعد إنهائه الدراسة، وتمّ تعيينه في سفارة العراق في ألمانيا، وهناك التقى بفتاة ألمانية أعجبته، فتزوجها.

بعد زواج نزار وعودته مع عروسه إلى بغداد، أخرج جواد الرسالة الّتي كان قد احتفظ بها بصمت، وأعادها إلى أخيه.

أمّ جواد، السيّدة مَليكة عبدالله، كانت قد أقامت فترة في أنقرة عندما كان زوجها ضابطاً في الجيش العثماني. وهناك أنجبت أبناءها جميعهم، باستثناء نزار الّذي ولد بعد العودة إلى بغداد. وهكذا فإن جواداً كان من مواليد أنقرة في العام ١٩١٩.

اكتشفت لورنا أنها أصبحت فرداً في أسرة كلّ أفرادها من الفنانين. فقد كان والد جواد رسّاماً بارعاً، حصل على ميداليات عديدة تقديراً للرسوم الّتي أنجزها لمنطقة سراي الحكومة، وبفضل سمعته كرسّام معروف، نجا الحاج سليم من الإعدام رمياً بالرصاص على يد الأتراك، بعد أن تعاون مع الثوار من الضباط العراقيين أثناء الثورة العربية الكبرى، ويسّر لهم سبيل الهروب من تركيا. وإثر ذلك طُرد أبو جواد من الجيش وعاد إلى العراق ليعمل موظّفاً في مديرية النفوس.

سمعت لورنا هذه التفاصيل من جواد، وقال لها أيضاً إنّ أباه حزن حزناً شديداً لطرده من الجيش، وصار يكثر من السهر والشراب إلى أن تدهورت صحته وفارق الحياة وهو في حوالى الستين، ولم يتح للورنا أن تعرفه.

أمّا أُمّ جواد، فكانت فنانة أيضاً ومطرزة ماهرة، أمرأة ذات مهابة وصاحبة الشخصية الأقوى في العائلة. لم يَرُق لها في البداية أن يتزوج ابنها من أجنبية، لكنها أحبت لورنا بعد ذلك، وتفاهمت معها بشكل طيب، خصوصاً وأن جواداً قام بمهمة الترجمان الأمين بينهما، ليل نهار.

لقد رسم جواد والدته في واحدة من رسومه المبكّرة، كما رسمت نزيهة والدتها في لوحة جميلة جداً. وعدا عن صورة فوتوغرافية لها مع أبنائها في أنقرة، فإنّ أُمّ جواد كانت لا تكشف وجهها أمام الغرباء، وتشعر بالحرج حين يرسمها أحد أبنائها ويعلّق اللوحة بعد ذلك في المعارض العامة.

كانت أُمّ جواد مريضة جداً عند وصول لورنا إلى بغداد، وقد هاج عليها ألم المفاصل بحيث ألزمها السرير، وتحتم على الكنّة الإنكليزية أن تتولى أعباء البيت فوراً، وأن تصبح مسؤولة عن الطبخ والغسيل، الأمر الّذي بدا مفزعاً لمن لم يتعود عليه من قبل، خصوصاً وأن العمل يتمّ تحت عيني أم جواد الراصدتين.

وضعت لورنا في رأسها منذ البداية فكرة أنها هي الأجنبية بينهم، وبالتالي فإن عليها أن تتكيف مع عاداتهم وأن تتعلّم التصرف كما يتصرفون. وبفضل هذه الفكرة ساد الوئام والتفاهم بينها وبين حماتها، وقاد التفاهم إلى محبة متبادلة.

في الصورة الّتي التقطت لها في أنقرة، تبدو أُم جواد عروساً شابة سافرة الوجه، حاسرة الرأس. لكنها ارتدت العباءة بعد عودتها إلى العراق، مثل نساء ذلك الوقت.

أما لورنا، فلم تشعر بضرورة أن تتشبه بالعراقيات في ارتداء العباءة، ولم يطالبها أحد بذلك، على رغم وجود بيت العائلة في حي محافظ. أما جين، صديقتها البريطانية الّتي اقترنت بموصلي من آل العمري وعاشت معه في الموصل، فقد لبست العباءة تماشياً مع تقاليد أسرة زوجها والأعراف السائدة في المدينة.

لا شك أن المجتمع في بغداد كان أكثر انفتاحاً منه في الموصل، بحيث إنّ إحدى المعلمات الإنكليزيات من صديقات لورنا، كانت تتنقل بين بيتها والمدرسة راكبة الدراجة في شوارع العاصمة، دون أن يزعجها أحد. صحيح أنها استمدت تلك الحرية من كونها أجنبية... لكن أحداً لم يحاول إعتراضها أو مضايقتها.

تقول لورنا إن قلب بغداد كان رحباً في تلك الأيام، للأبناء وللغرباء.

جواد الى (اليسار) مع شقيقته نزيهة وشقيقه نزار محيطين بوالدتهم.

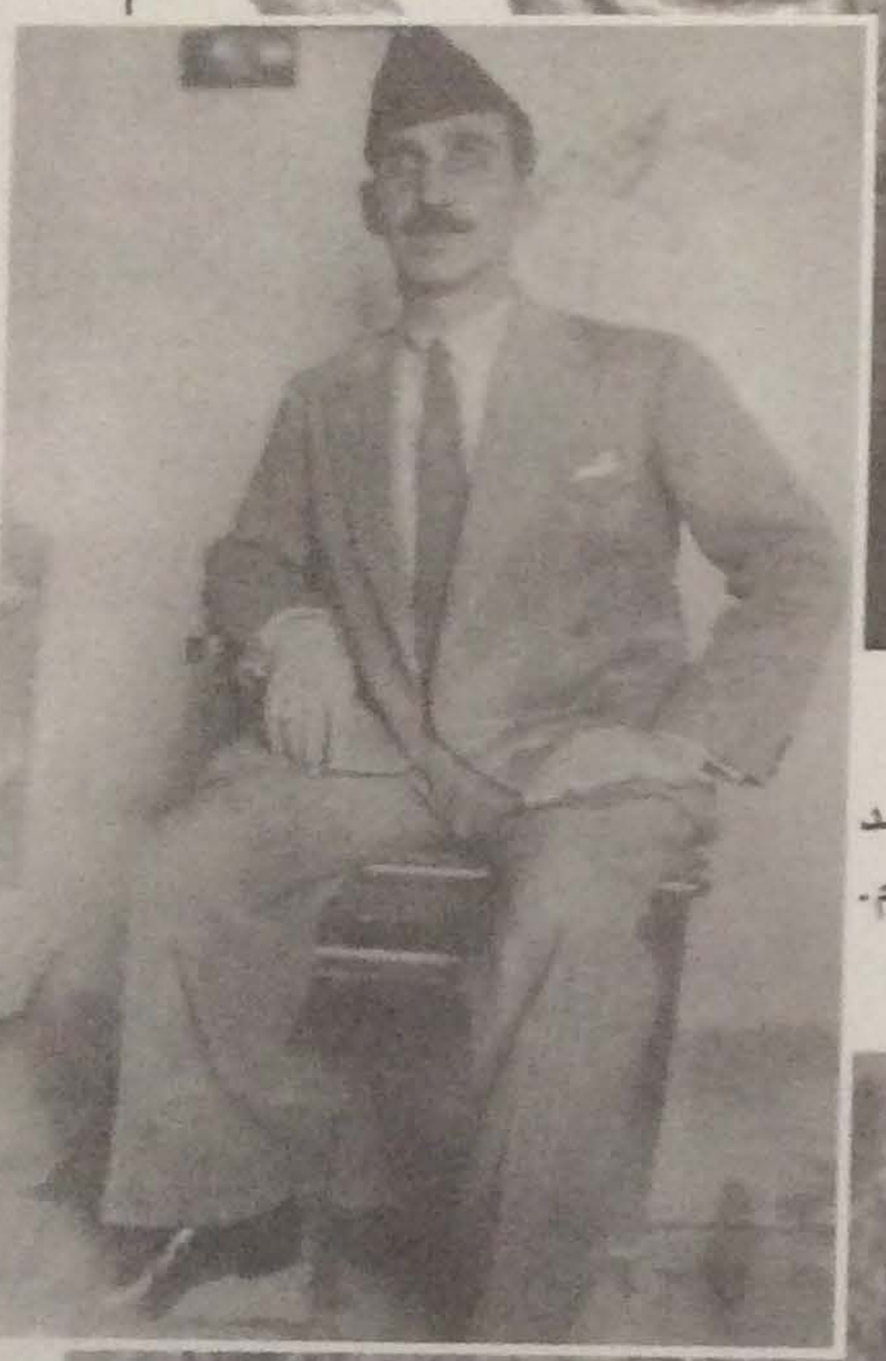

الحاج محمّد سليم.

في السيارة البيك آب أمام بيت الوزيرية.

facebook.com/the.boooks

إنعام كجي جه

لورنا

سنواتها مع جواد سليم

الزّواج

بعد أسبوع من وصولها إلى بغداد، عقد جواد سليم قرانه على لورنا هيلز، وكان الشاهدان سعيد علي مظلوم، صديق جواد، وزوجته الإنكليزية جون.

وذهاب لورنا إلى المحكمة الشرعية يبقى في ذاكرتها يوماً لا ينسى. لقد جلست إلى جانب جواد في القاعة المزدحمة ينتظران أن ينظر القاضي في قضيتين قبل عقد قرانهما. القضية الأولى تتعلّق برجل جاء يشتكي زوجتيه الاثنتين لأنهما تحالفتا ضدّه وقررتا الامتناع عن إعداد الطعام له أو الاعتناء بثيابه.

فجأة رفع المدعي دشداشته أمام الجميع، وأشار إلى ثيابه الداخلية الكالحة وهو يقول : «أنظر إلى حالي يا جناب القاضي ... هل هذا لباس رجل له امرأتان»؟

القضية الثانية كانت المدعية فيها امرأة ترتدي العباءة وتسدل على وجهها البوشي(*) جاءت تشتكي زوجها لأنه بخيل، لا يعطيها مصروفاً، يهمل بيته وأولاده منفقاً أمواله على الغواني والحانات.

كلما نطقت المدعية بصفة سيئة إضافية من مساوىء الزوج، رفع القاضي رأسه ونظر شزراً إلى رجل كان يقف مرتبكاً في طرف القاعة. وعندما كان الرجل يحاول أن يفتح فمه للدفاع عن نفسه، فإن القاضي كان يزجره بعنف طالباً إليه أن يخرس.

في آخر الأمر، رفع الرجل عقيرته، على رغم الزجر ونظرات الازدراء، وقال إن صاحبة القضية ليست زوجته، ولا هو زوجها، فهو قد جاء إلى المحكمة من أجل قضية أخرى، لكن الأمر اختلط على الحاجب بسبب النقاب الّذي يغطّي وجه المرأة!

بالنسبة للورنا، كانت تلك المشاهد استعراضاً مثيراً وغير مألوف، خصوصاً وأن جواداً كان يترجم لها كلّ شاردة وواردة، ويبالغ أحياناً فيضيف تعليقات طريفة من عنده، لكي يمر الوقت بسرعة، ويحين دورهما أمام القاضي.

وأخيراً، سمعت لورنا من ينادي باسمها بصوت عال، فقامت مع جواد وتقدمت نحو

المنصة ووضعت إمضاءها على أوراق العقد دون أن تنطق بكلمة. ماذا كانت ستقول وهي لا تفقه من العربية شيئاً؟

خرج العروسان والشاهدان ليأخذوا البيك آب عائدين إلى البيت. وكانت العروس ترتدي ثوباً صيفياً عادياً، والعريس لا يملك ما يشتري به خاتماً لها، أو ما يقيم به حفلاً للمناسبة. أي حفل والأب قد توفي منذ زمن غير بعيد، والأمُّ مريضة، والأخت في الخارج، والعروس بمفردها في البلد بدون أحد من عائلتها؟ مع هذا، أشاعت الصحبة اللطيفة لسعيد مظلوم وزوجته جون شيئاً من مرح الاحتفال في الطقس الحار لتلك الأمسية.

وكانت تلك أوّل مرّة تلتقي فيها لورنا بجون، بعد أن تبادلتا الرسائل لفترة من الوقت عندما كانت جون مخطوبة لسعيد. لقد اتفقتا على السفر سوية إلى بغداد، لكن عمل لورنا في التدريس في السنة الّتي أعقبت تخرجها، واضطرارها لانتظار العطلة الصيفية، حالا دون التزامها بما تواعدت عليه مع جون، فسبقتها هذه إلى بغداد في نيسان، ولحقت هي بها في أيلول.

لدفع ثمن تذكرة سفر جون، اقترض سعيد مظلوم مبلغاً من جواد، على أن يردّه إليه بسرعة. ولما حان موعد مجيء لورنا وأراد جواد أن يشتري لها تذكرة الطائرة، لم يكن سعيد قادراً على رد الدين، فذهب جواد إلى صديق آخر ليستدين ثمن التذكرة.

كانا فقيرين مثل شابين حديثي التخرج، وليس بمقدور جواد الاستدانة من والدته لأنها تعيش على تقاعد زوجها الّذي لم يكن يتجاوز الثلاثة عشر ديناراً، بعد أن أنفقت مدخراتها على بناء بيت الوزيرية.

لكن متى كان الفقر عائقاً أمام الحبّ والآمال الكبيرة وفورة الشباب؟!

عاش العروسان في تناغم كبير، بحيث إنهما كانا يحبان أن يلبسا الثياب نفسها ويتناولا الطعام في طبق واحد. ولم يكن الاختلاف في الدين يعني شيئاً لأيّ منهما، فلورنا لم تكن متدينة، بل لم تكن تعتبر نفسها مسيحية حقيقية لأن والديها لم يعمّداها في صغرها. أما الدين بالنسبة لجواد فكان يعني القيم الحميدة.

أمّا أُمُّ جواد فكانت متدينة، تحفظ القرآن وتصلّي في الأوقات وتصوم رمضان. لكن تمسكها بالشعائر لم يمنعها من أن تفتح بيتها وقلبها للورنا، وتعاملها مثل أبنائها.

طالما جلست لورنا متربعة على الأرض أمام أمّ جواد، تستمع إليها وهي تحدثها عن أيامها في تركيا، دون أن تفهم الكثير من الكلمات. لقد عودت نفسها على الإنصات بهدف التقاط المعاني، وكانت تبذل جهداً لكي تتفاهم مع حماتها حين يكون جواد، الترجمان الأمين، غائباً عن البيت. لكن

حصيلتها المحدودة من العربية آنذاك، لم تكن تسمح لها بطرح الأسئلة والاستزادة من ذكريات أمّ جواد، الّتي تعلمت لورنا مناداتها بلقب بيبي، مثل بقية أفراد العائلة.

وبيبي كانت سيدة قوية حتى وهي طريحة الفراش. لم يحل المرض بينها وبين أن تكون دائماً القيّمة على أمور البيت، تتربع على سريرها قرب الشباك في الغرفة الّتي كانت أصلاً غرفة للطعام قبل ازدحام البيت، فإذا سمعت أدنى حركة في الخارج أزاحت الستارة وصاحت: منو؟

تعلمت لورنا من أم جواد كيف تتقن طهو الرز، وكيف تطبخ تشريب البامية، وكيف تلف الدولمة(**)، بحيث إنها نسيت الأطباق الإنكليزية الّتي تربّت عليها. ولعل إقبالها على المأكولات العراقية الّتي كانت تبرع فيها أُمّ جواد، هو الّذي فتح قلب حماتها لها. وهي ما زالت تذكر، بالكثير من الامتنان والمحبة، كيف كانت بيبي تتفنن في إعداد كبّة الحامض الّتي تعشقها لورنا، حتى بعد انتقالها وزوجها للسكن في بيت مستقل.

«عندما كنا نذهب لزيارتها أيام الجمع، كانت بيبي تستيقظ مع الفجر لكي تجلس أمام الهاون وتبدأ بد ق الكبة، لأنها تعرف أنها أكلتي المفضلة».

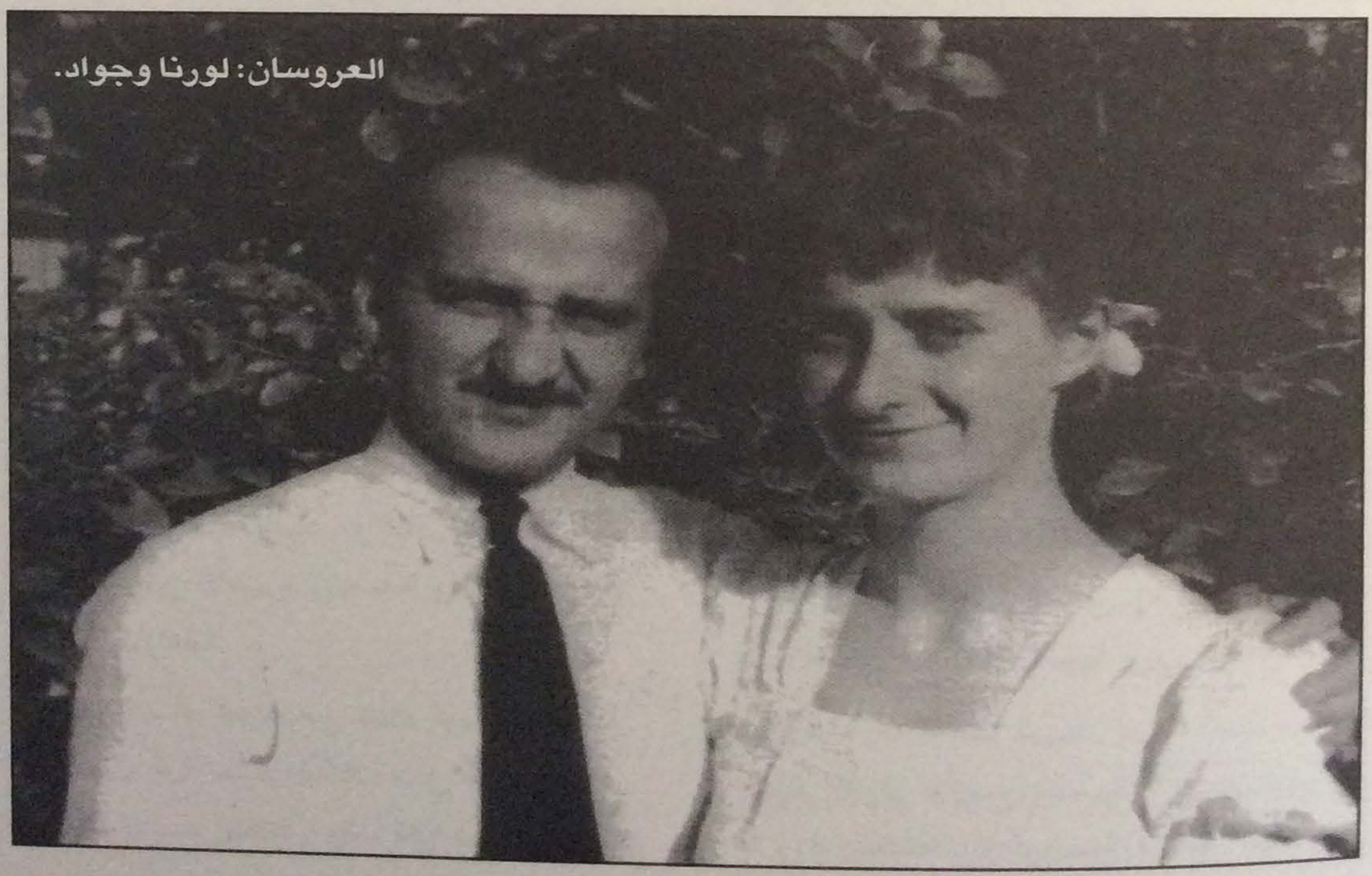

العروسان: لورنا وجواد.

وكان من كرم أُم جواد أنها تخلت عن غرفتها الخاصة وانتقلت للنوم في غرفة الطعام، لكي تعطي لجواد وزوجته غرفتين في بيتها، واحدة للنوم وأخرى للرسم، وكلتاهما في الطابق الأرضي. أما نزار فأخذ الغرفة الَّتي كانت في الطابق الأعلى.

بطبيعة الحال لم تتعود لورنا على حرارة الطقس بسهولة، إذ لم تكن في البيت مبردات للهواء أو مراوح سقفية. وقد استعار جواد من أحد أصدقائه مروحة منضدية للتخفيف عن زوجته، وكان ينقل المروحة ما بين المخدع والمرسم، حسب الحاجة.

ومرة أخرى، متى كان الحر عائقاً أمام الحبّ والآمال الكبيرة وفورة الشباب؟!

بعد اقترانها بجواد، قيل للورنا إنّ اللياقة تقضي بأن تذهب مع الأسرة لزيارة الأميرة راجحة، شقيقة الملك السابق غازي وعمّة الملك الصغير فيصل الثاني. والهدف من زيارة المجاملة تلك تقديم الكنة الجديدة إلى الأميرة الَّتي ترتبط وأسرة جواد بقرابة عن طريق المصاهرة. ذلك أن سعاد سليم، شقيق جواد الكبير، كان متزوجاً من شقيقة عبد الجبار محمود. وكان هذا الأخير متزوجاً من الأميرة راجحة ولهما ابنتان في سنّ المراهقة.

تخلفت أم جواد عن تلك الزيارة لاعتلال صحتها، أما جواد فكان مثل الَّذي يؤدّي دوراً لا يناسبه إطلاقاً. وقد عبّر فيما بعد عن ضيقه بتلك الواجبات الَّتي تتطلب منه الوقوف كلما دخلت إحدى الأميرات إلى الصالون أو خرجت منه، والتخاطب بعبارات المجاملة واستعمال ألقاب التفخيم التركية.

وعلى رغم القرابة العائلية بين أسرة جواد وعمة الملك، فإن جواداً لم يقابل فيصل الثاني سوى مرة واحدة وبشكل عارض، عندما دعي الملك ليرعى افتتاح معرض للرسم في كلية البنات، وكان يومها قد أنهى دراسته في كلية هارو في بريطانيا، وعاد ليأخذ مكانه ملكاً متوجاً في العراق.

تذكر لورنا أن عبد الجبار محمود كان رجلاً واضح الوسامة، تعلق قلب الأميرة به فتزوجته وهو ابن أسرة من عامة الشعب. وقد خصص لزوج الأميرة مكتب في القصر، دون أن يكون هناك ما يعمله فعلاً. ويبدو أن الرجل ضاق بالدوام في وظيفة وهمية، فتخلص منها بالالتحاق بكلية الحقوق لدراسة القانون.

سمعت لورنا همساً يدور بين نساء العائلة حول إصرار الأميرة راجحة على الاقتران بعبد الجبار محمود، خلافاً لرغبة عائلتها. بل إنها ذهبت إلى حد التهديد بإفشاء بعض الأسرار العائلية الَّتي تخصّ إحدى شقيقاتها، إذا وَقَفَ أهلها حائلاً بينها وبين الزواج.

وهنا لاحظت لورنا أن ما أخبرها إياه جواد حول تاريخ الأسرة لا يتطابق مع ما رواه شقيقه نزار لزوجته الألمانية. فقد كان

لجواد شقيق أكبر يدعى رشاد، عمل ضابطاً في الجيش وتوفي بشكل غامض وهو في الثامنة والعشرين من العمر. وقد حزنت أمه عليه حزناً شديداً بحيث كان الجميع يتحاشون ذكر اسمه أو استعادة سيرته في حضورها.

لقد أوحى نزار لزوجته بأن شقيقه الراحل رشاد كان مقرباً من إحدى الأميرات. أمّا جواد فلم يفتح هذه السيرة مع لورنا، وكل ما قاله لها إن أخاه قد فارق الحياة بعد سقطة شديدة عن صهوة الحصان، أدت إلى إصابة قاتلة في الخصية.

لم يكن أحد يجرؤ على ذكر اسم رشاد علناً في البيت خلال اجتماعات العائلة، بل كان اسمه يرد همساً في المخادع، بين الكنّات وأزواجهن. ولما رزق نزار بابنه البكر، طلب الإذن من والدته أن يسمّي الطفل رشاداً، فوافقت. ومع رشاد نزار سليم بدأ في الأسرة جيل ثالث من الفنانين.

بعد ذلك بثلاثين سنة، حين زُفَّت مريم ابنةُ جواد ولورنا الصغرى، إلى زوجها البريطاني، تصادف وجود ابن عمها رشاد في لندن، وكان هو الَّذي تأبَّط ذراعها وسلّمها إلى عريسها، نيابة عن أبيها الراحل.

(*) البوشي: حجاب رقيق تُشدِله النساء على وجوههن.

(**) الدولمة: الكوسى أو ورق العنب المحشي.

سنوات السّعادة

طابت الإقامة للورنا في بغداد. وعلى رغم ضيق ذات اليد، عاشت مع زوجها حياة هانئة، وكانت تحب، بشكل خاص، الذهاب إلى السينما الصيفية، حين يسمح وقت جواد بذلك.

كانا يأخذان معهما الحَبّ والفستق ويجلسان على المقاعد الخشبية تحت السماء المكشوفة المزدانة بالنجوم، يتابعان فيلماً من أفلام ريتا هيوارث أو سبنسر تراسي. لكن وقت جواد بدأ يضيق: فلكي يوفر احتياجات أسرته الضرورية كان يعمل في ثلاثة أماكن: دار المعلمين العالية وكلية البنات ومعهد الفنون الجميلة.

ولم يكن البث التلفزيوني قد بدأ بعد، فكان الزوجان يمضيان الأمسيات في الاستماع إلى الموسيقى، إذ جمع جواد مكتبة موسيقية متنوعة، وكان يتردد مع لورنا على مخزن حسّو إخوان لشراء الجديد من الأسطوانات، ثم يدعو الأصدقاء للاستماع الجماعي إليها. وكان يحب الرقص الغربي أيضاً، ويشعر بالسعادة وهو يراقص زوجته في الحفلات الاجتماعية، مثل أي جنتلمان متحضر.

لكنه أيضاً كان ابن بلد. عشق الموسيقى الشرقية بقدر حبه للموسيقى الكلاسيكية، وتولّع بالمقام العراقي، وكان يتردد على بيت صديقه باهر فائق لكي يستمع إلى أسطوانات المقام الّتي يجمعها هذا الصديق.

ولم يقتصر حب الموسيقى على الاستماع، بل اشترك جواد ولورنا في العزف مع فرقة بغداد للفيلاهارمونيك، وكان أعضاء الفرقة يعقدون جلسات أسبوعية في بيت الطبيب سامي الشيخ قاسم، لإجراء التمارين.

ولأن الكمان الّذي كانت لورنا تعزف عليه في إنكلترا يعود لوالدتها، وقد رفضت الوالدة تركه لها عندما سافرت إلى بغداد، فقد استعارت لورنا آلة كمان من الدكتور سامي، لتتمكن من مواكبة التمارين.

وبالإضافة إلى الدكتور سامي، ضمت الفرقة كلّاً من فؤاد رضا، منير الله ويردي، أكوب كوميجيان، و وارتان مانوكيان. وكان ساندو البو هو المايسترو.

facebook.com/the.boooks

إنعام كجي جه

لورنا

سنواتها مع جواد سليم

لم تستمر لورنا في التمارين مع الفرقة أكثر من سنتين، فهي لم تكن تعتبر نفسها عازفة ماهرة، عدا عن أن انشغالها بولادة ابنتها البكر زينب، قد عطّلها عن الاستمرار في العزف. لقد جربت، في بعض المرات، أن تأخذ الطفلة معها إلى التمارين محمولة في مهدها النقال، لكن بكاء زينب كان يفسد اللقاء كله.

في تلك الفترة رسم جواد شعاراً للفرقة مستوحى من القيثارة السومرية. وقد أصبح ذلك الرسم نفسه، فيما بعد، شعاراً للفرقة السمفونية الوطنية عند تأسيسها في العام ١٩٦٠.

والحقيقة أن مجتمع بغداد الفني، آنذاك، كان صغيراً، والكل يعرف الكل، وقد بدأت تتشكل مجموعات فنية حول هذا الفنان البارز أو ذاك، مثل جماعة الرواد ٱلَّتي كان محورها فائق حسن، وجماعة بغداد للفن الحديث ومحورها جواد.

سمعت لورنا الكثير من جواد حول صداقته لفائق حسن. وهي صداقة قد توطدت في مطلع شبابيهما، قبل زواج جواد من لورنا وزواج فائق من السيدة الفرنسية سوزان. وقد درس الصديقان في باريس سوية في العام ١٩٣٨، واستمرت العلاقة بينهما بعد عودتهما إلى بغداد، وأثمرت تجارب وأفكاراً جديدة تأكدت قيمتها فيما بعد.

وقبل تأسيس الجماعات الفنية، كانت جمعية أصدقاء الفن تجمع عدداً من الشباب من مهن مختلفة، يلتقون أسبوعياً في البيوت أو يخرجون إلى شاطىء دجلة للحديث وتبادل الأفكار والترويح عن النفس. وكان بينهم، بالإضافة إلى فائق وجواد، خالد القصاب، جبرا إبراهيم جبرا، نوري الراوي، محمد عبد الوهاب، لمعان البكري، نوري مصطفى، قتيبة الشيخ نوري، وآخرون. ولأن المجموعة كانت تضم عدداً من الرسامين، انبثقت فكرة إقامة أول معرض للرواد.

تذكر لورنا أن العلاقة الودية بين الفنانين كانت تتلبد أحياناً بغيوم الحسد ٱلَّتي يشيعها بعض المنافقين والمتصيدين في الماء العكر. فلقد حدث مثلاً أن ذهب أحد هؤلاء إلى فائق حسن، ذات يوم، وهمس في أذنه بأن جواداً يضع عينه على منصبه كرئيس لقسم الرسم في معهد الفنون الجميلة، وأنه ـ أي جواداً ـ يصر على الاستمرار في الرسم لهذا الهدف، على رغم كونه نحاتاً. ويبدو أن فائق حسن كان يشكو في تلك الفترة من متاعب في العينين، فداخله القلق، وأوشك أن يصدق ما نقل إليه، وبات يتحاشى الالتقاء بجواد.

وانتهت المشكلة عندما ذهب جواد إلى صديقه فائق وطمأنه إلى أنه غير طامع برئاسة قسم الرسم. لماذا يطمع بها وهو نفسه رئيس لقسم النحت في المعهد ذاته؟

أزالت كلمات جواد الغيمة العابرة في الأجواء، وعادت الصداقة إلى سابق عهدها، فالحزازات الصغيرة لم تكن تعرقل عمل ذلك الجيل المتحمس من الفنانين. لقد كانوا سعداء لأنهم يقيمون المعارض تلو المعارض، ويرسمون وينحتون بروحية متجددة، ويدركون أنهم يؤسسون لتقاليد فنية لم يعرفها العراق من قبل.

وجواد بالذات، كان مأخوذاً بتلك الدوامة الجميلة. فبالإضافة إلى عمله في الرسم والنحت والموسيقى، كان يحب الباليه والمسرح، ويجد لذة كبرى في عمل الماكياج للممثلين في مسرحيات معهد الفنون.

إن العيش مع زوج مثله، كان يجعل لورنا في حالة إنذار على مدى النهار والليل، فقد كان يطلع عليها كل يوم بفكرة جديدة أو بمشروع مبتكر.

لقد بدأ في تلك الفترة بإطلاق لحيته. وهو أمر لم يكن مألوفاً بين الرجال في المدن، ولا في أوساط الفنانين. فأصحاب اللحى هم عادة حجاج جاؤوا من إيران أو من أفغانستان لزيارة العتبات المقدسة في النجف وكربلاء. لكن جواداً كان يرى في تلك اللحية المسترسلة إضافة أخرى تقربه من صورة الفنان الساهي عن العادات اليومية المقررة على البشر.

ذات يوم، وهو في حافلة النقل العمومي، جاءه الجابي وطلب بالإنكليزية عشرة فلوس ثمن التذكرة. لقد ظنه أجنبياً بسبب لحيته. وقد نظر جواد نظرة ماكرة إلى الجابي وقال بلهجة بغدادية أصيلة: كص لي منطقتين... عيوني(*)!

ما زالت لورنا تذكره يعود مسرعاً إلى البيت من دوامه المسائي، فيأخذها لكي يلحقا بحفل يقام في هذه السفارة الأجنبية أو تلك، لاحتساء كأس أو كأسين قبل انفضاض الحفل. وأحياناً، لم يكن الوقت يسعفه ليستبدل بثيابه ما يليق وتلك المجتمعات الأنيقة، فيذهب مرتدياً ثياب العمل، فلا ينفر أحد منه، بل يستقبله أصحاب الدعوة بحفاوة خاصة ويفرحون به باعتباره الفنان المغاير للآخرين.

في السفارة الفرنسية كانوا يهتمون كثيراً بالفنانين، ويوجهون الدعوة إلى لورنا وجواد باستمرار لحضور حفلاتهم الوطنية والفنية. وكان الزوجان الفنانان يحبان تلك الحفلات، ويجدان فيها شيئاً من الإطلالة على العالم، ويميلان أيضاً إلى تلبية دعوات السفارة الهندية، حيث ارتبطا بصداقة مع العاملين في السفارة، وبينهم تلك السيّدة الحسناء مرتدية الساري، الّتي أصبحت موضوعاً لإحدى لوحات جواد.

وبالإضافة إلى السفارات، كان مدير مخازن أورزدي باك وزوجته يتقربان من الوسط الفني، ويحيطان أفراده بالرعاية، ويقيمان الحفلات والمعارض من حين لحين،

ما عوّض لورنا عن الأجواء الّتي تركتها في بلادها.

وطبعاً كان العاملون في السفارات والمراكز الأجنبية، في طليعة مقتني اللوحات والأعمال الفنية العراقية. لذلك كان الفنانون يحافظون على علاقات طيبة معهم، لأنها علاقات مجزية.

تضحك لورنا طويلاً وهي تروي أن زوجها أراد يوماً أن يتمازح مع أحد أصدقائه الفنانين، فاتصل به هاتفياً وراح يوجّه إليه الكلام بإنكليزية رفيعة، زاعماً أنه سكرتير السفير البريطاني، وأن الاختيار قد وقع على ذلك الفنان لتزيين مقر السفارة الّذي يجري تجديده وإعادة تأثيثه.

رحّب الصديق بالسكرتير ترحيباً شديداً، وشكره على ثقة السفارة به، ثم سأل بفضول عن نوع اللوحات الّتي يفضلونها.

أجاب جواد، مواصلاً تقليد لهجة السكرتير :نريد لمكتب سعادة السفير جدارية تشغل حائطاً كاملاً، ومن المفضل أن تكون لنساء عاريات.

وأمام انحباس صوت زميله الفنان، أطلق جواد ضحكة صاخبة إذ لم يستطع المضيّ في مزحته أكثر من ذلك.

معه، تقول لورنا إنّها ضحكت كثيراً، فقد كان يعشق الفكاهة، ويحب الحياة الاجتماعية، ويستطيب الشراب.

وهو إذا كان يحتسي المشروبات الأجنبية في حفلات السفارات، فإنه كان في بيته يفضّل العرق المستكي، خصوصاً وأن قنينة العرق بنصف دينار، بينما قنينة الويسكي بأضعاف ذلك!

ومن جواد، انتقل الإعجاب بالعرق إلى لورنا. ومثله، صارت تفضل المستكي على الزحلاوي، فالأول هو مشروب أهل البلد، كما تقول، أما الثاني فهو للأجانب.

لم تعد لورنا سليم تعتبر نفسها أجنبية في بغداد.. أما رسائلها إلى أهلها فقد كانت متفرقة. وقد اشتكى والداها دائماً من أنها لا تكتب إليهما بما فيه الكفاية.

بعثت إليهما، يوماً، ببطاقة بريدية تحمل منظراً لباب المعظّم، حيث تقع مصلحة نقل الركاب الّتي تزين واجهتها جدارية لجواد. لكن الّذي لفت نظر أم لورنا في الصورة هو وجود عمود للكهرباء، ولهذا فقد تنفست الصعداء بعد أن اطمأنت إلى أن ابنتها الوحيدة لا تعيش في الظلمات!

وبسبب استغراقها في حياتها الجديدة، لم تسافر لورنا لزيارة والديها في إنكلترا في الصيف التالي، كما كانت قد وعدتهما. كيف تعود وهي في بدايات حملها، تنتظر طفلها الأول؟

في تلك الأيام، وعلى عادة نساء العائلات البغدادية، كانت أُم جواد

تقيم قبولاً(**) للسيدات مرة في الشهر، فتتقاطر الجارات والقريبات على البيت وتكتظ بهن الحديقة وغرفة الاستقبال. وكانت الكنة الإنكليزية تلبس أحلى فساتينها وتخرج لتجلس مع الضيفات، ساكتة مبتسمة، فهي لا تعرف من لغتهن سوى عبارات قلائل.

بعد أن يتفحصنها بفضول، كن يبادرن إلى طرح السؤال التقليدي: شلونچ؟ فترد بفخر: زينة!

ثم تهز الضيفات مراوحهن أمام وجوههن اللتمعة بالعرق ويتأففن قائلات : الدنيا حارة. فتهز لورنا رأسها موافقة : إي ... كلش حارة!

بعد ذلك تميل إحداهن عليها وتهمس بالسؤال الّذي لا بد منه، وهي تشير إلى بطن لورنا : أكو؟ ماكو؟

توقع جواد أن تنجب له لورنا بنتاً. وقد صح ما توقع. ففي ١٢ كانون أول ١٩٥١ رأت زينب النور. وكان أبوها قد اختار لها هذا الاسم من قبل أن تولد، وقال للورنا إن زينب اسم قديم وجميل، هجره الناس إلى أسماء حديثة وخفيفة لبناتهم. ولعل اختيار جواد لذلك الاسم هو حالة أخرى من حالات تسلّحه بالأصيل وهو ينطلق بشغف نحو كل ما هو حديث.

خطّط الوالدان لكي تتم الولادة في المستشفى الملكي، لكن ردهة الولادة كانت محجوزة بالكامل، وعندما شعرت لورنا بآلام المخاض اتصلت بطبيبتها الدكتورة نجيبة، فقيل لها إنها خارج بغداد. فقرر جواد أخذ زوجته إلى مستشفى السامرائي حيث تمت الولادة بسلام، وكان الوالد مسروراً بابنته الّتي تشبه كتلة صغيرة من الطين، يتأملها بعين الأب حيناً، وبعين الفنان أحياناً، ويحاول أن يكشف على أي نسق ستتشكل في الآتي من الأيام.

أمّا أم جواد، فحمدت الله على سلامة لورنا، ثم قالت لها مواسية: لا تهتمي ... سيكون ولداً في المرة القادمة. ولخيبة بيبي، كانت التالية بنتاً أيضاً، بعد أن فقدت لورنا جنيناً بين الولادتين. وقد ظلت أم جواد تردّد باستمرار أن الجنين الساقط كان صبياً بالتأكيد.

حين ولدت مريم، اختارت لها أمها هذا الاسم. وكانت قبل الولادة بفترة قصيرة قد شاهدت مع جواد فيلم «الطاحونة الحمراء» عن حياة الرسام الفرنسي هنري دو تولوز لوتريك، وأعجبت ببطلة الفيلم ميريام برو، وسمّت ابنتها الثانية على اسمها.

بين أوراق لورنا اليوم رسالة مقتضبة كان جواد قد تركها لها عندما عادها في المستشفى بعد ولادة زينب، ووجدها نائمة. ويبدو أنه لم يقع على ورقة فارغة، فكتب رسالته على بطاقة دعوة كانت في جيبه لحضور حفل موسيقي:

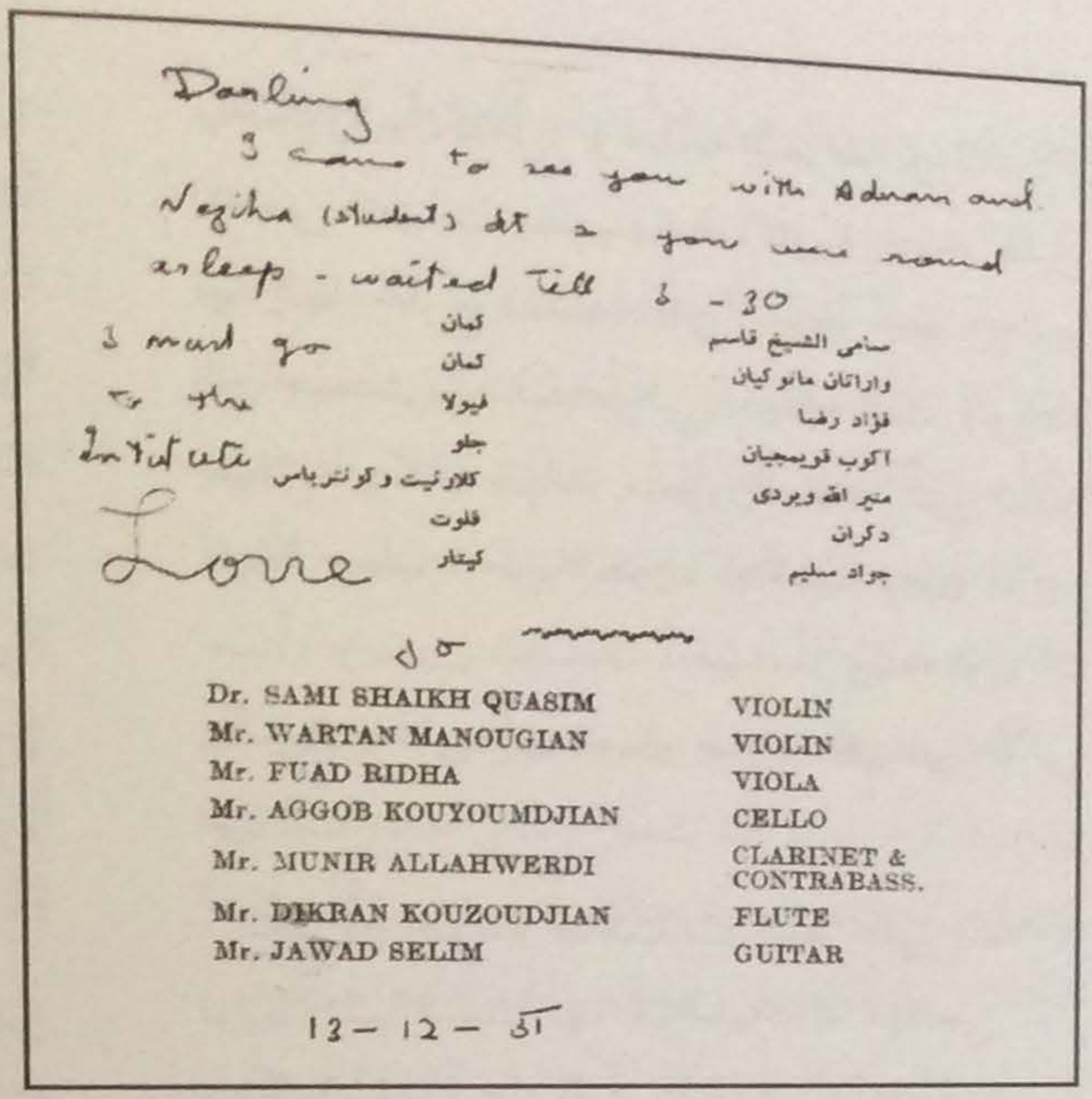

Darling
I came to see you with Adnan and Naziha (student) but as you were sound asleep - waited till 3 - 30
I must go to the Institute
Love
Jo

سامي الشيخ قاسم	كمان
واراتان مانوكيان	كمان
فؤاد رضا	فيولا
أكوب قويمجيان	جلو
منير الله ويردي	كلارنيت و كونترباس
دكران	فلوت
جواد سليم	كيتار

Dr. SAMI SHAIKH QUASIM	VIOLIN
Mr. WARTAN MANOUGIAN	VIOLIN
Mr. FUAD RIDHA	VIOLA
Mr. AGGOB KOUYOUMDJIAN	CELLO
Mr. MUNIR ALLAHWERDI	CLARINET & CONTRABASS.
Mr. DIKRAN KOUZOUDJIAN	FLUTE
Mr. JAWAD SELIM	GUITAR

13 - 12 - 51

حبيبتي،

جئت لرؤيتك مع عدنان ونزيهة (الطالبة) وكنت غافية. انتظرت حتى الثالثة والنصف. يجب أن أذهب الى المعهد.

مع حبي
جو
٥١/١٢/١٣

وقد أشار جواد إلى نزيهة بصفة الطالبة، قاصداً تلميذته الفنانة نزيهة رشيد، تمييزاً لها عن شقيقته الّتي تحمل الاسم نفسه. أما عدنان فهو صديقه الفنان عدنان راسم.

أحب جواد ابنتيه حباً جماً، وألحقهما عندما كبرتا قليلاً بمدرسة الراهبات الخاصة في الباب الشرقي، على الرغم من ارتفاع أقساطها. أما لورنا، فلم تكن تميل إلى المدارس الخاصة، وأرادت لابنتيها دخول مدارس الحكومة والاختلاط ببنات عموم الناس. لذلك نقلت زينب ومريم فعلاً إلى مدرسة حكومية في الوزيرية، بعد رحيل أبيهما، لأنها، عدا عن عدم اقتناعها بالمدارس الأهلية، ما عادت قادرة على دفع أقساطها.

مع مجيء زينب، شعر الزوجان بالحاجة إلى مكان أوسع، واقترحت لورنا الانتقال إلى بيت مستقل. لكن جواداً كان يتردد في مفاتحة والدته في الموضوع لئلا يحزنها. وأخيراً، حسم أمره، وانتقل مع زوجته إلى بيت استأجره في الأعظمية بمئة وأربعين ديناراً في السنة، في شارع عثمان نوري، غير بعيد عن النادي الأولمبي. أراد صاحب البيت، شريف يوسف، أن يأخذ الثمر الّذي تطرحه النخلات الأربع الّتي كانت في الحديقة. لكن جواداً، بتحريض من لورنا، رفض ذلك ... وليته وافق عليه.

في آخر الصيف، امتلأت الحديقة بتمر من أردأ الأنواع، لا يصلح طعاماً للبشر ولا علفاً للحيوانات، وصار جواد يبحث عن وسيلة للتخلّص من هذا التمر الّذي أغرق الحديقة، فجاء ببستاني من معهد الفنون وبعربة يجرها حصان، لنقل محصول نخلاته الأربع ورميه في النهر القريب.

وقوع البيت قريباً من شاطىء دجلة كان قد جعله عرضة للغرق في فيضان ١٩٤٩. وقد تركت المياه آثارها على الجدران فتساقط

الطلاء عن أجزائها السفلى، وتسللت إليها الرطوبة. مع هذا، بقي جواد وأسرته الصغيرة أربع سنوات في بيت الأعظمية هذا، إلى أن جاء صاحب البيت يوماً وقال إنه يريد هدمه وتعمير بناء جديد مكانه.

عاد جواد ولورنا أدراجهما إلى بيت الوالدة في الوزيرية، ليبقيا عندها حوالى السنة، ثمّ ليستأجرا مشتملاً صغيراً في الصليخ هذه المرة، قرب كلية بغداد.

كانوا قد أصبحوا أسرة من أربعة أفراد، ولا بدّ من سيارة على قدر الحال يتنقلون بواسطتها، فاشترى جواد من أحد اصدقائه الفنانين سيارة إيطالية من نوع فيات ٦٠٠ صغيرة جدّاً، لا يوجد منها في بغداد سوى اثنتين، تخلّى عنها صاحبها بسرور لأنه كان طويل القامة، يجد صعوبة في حشر ساقيه داخل تلك العربة الّتي تشبه علبة السردين.

أما جواد، فكان يميل إلى ذلك النوع الظريف من السيارات من أيام دراسته في روما، ولا يضايقه أبداً أن ينحشر فيها ومعه لورنا والبنتان.

بعد أربع سنوات من وصولها إلى بغداد، وجدت لورنا أخيراً الفرصة للعودة لزيارة والديها في إنكلترا. وقد أسرعت، قبل السفر، إلى سوق الذهب في شارع النهر لكي تشتري لنفسها أرخص خاتم زواج عثرت عليه، وتضعه في بنصر يدها اليسرى وتتأمله بفرح مثل عروس جديدة، على رغم أنها كانت أُماً لطفلتين.

سافرت إلى والديها والخاتم في يدها. فمن يدري، إذ بدون خاتم الزواج قد لا يصدّق السيّد والسيّدة هيلز أن ابنتهما قد تزوجت في بغداد فعلاً.

(*) «كص لي منطقتين»: عبارة مفادها «إقطع لي تذكرة صالحة لمنطقتين».

(**) القبول: استقبال نسائي.

جواد في السادسة عشرة من عمره مع عيسى حنا على شاطىء دجلة وقد نحت امرأة في الطين.

جواد مع فائق حسن خلال رحلة إلى آثار نينوى.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

لورنا وجواد وإلى جانبهما كينيث وود وكويت ماتسدوف وصديقة.

حفلة في بيت سامي الشيخ قاسم، وتبدو في الصورة لمعان البكري ومحمد عبد الوهاب وبطرس حنا وصبيح شكري.

جواد يراقص لورنا في بيت العائلة احتفالاً بحلول عامٍ جديد.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

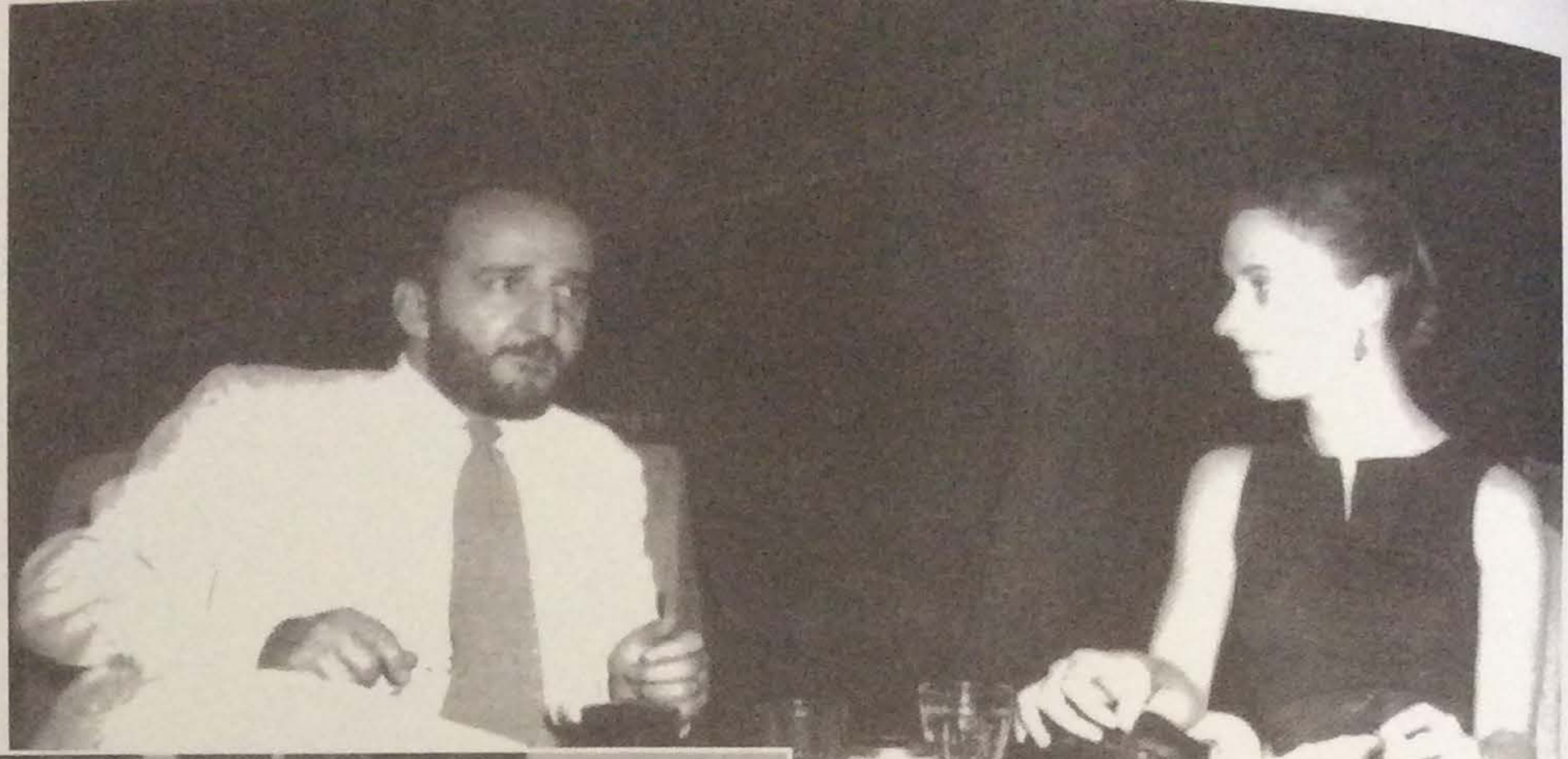

لورنا وجواد.

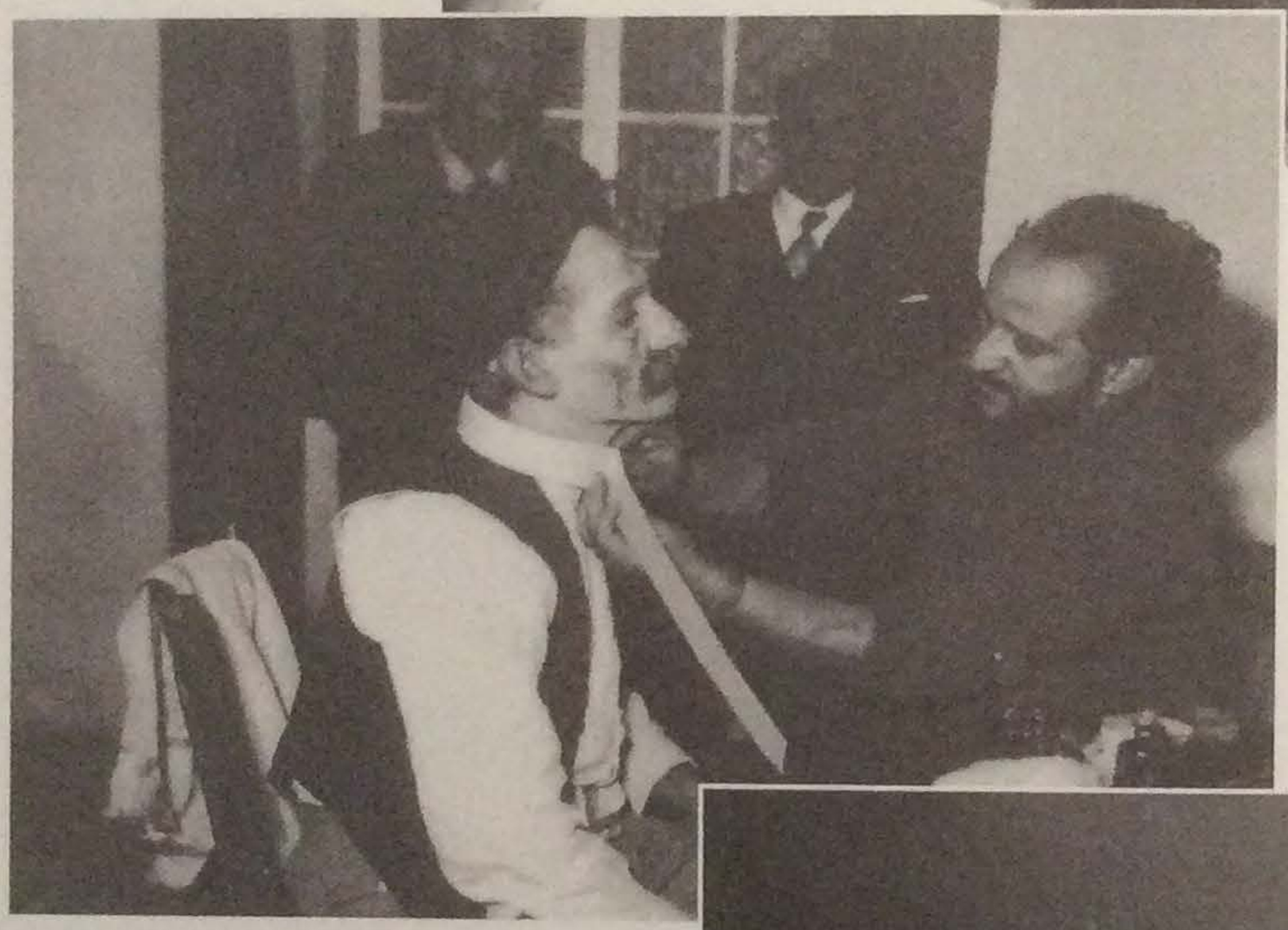

جواد يعمل على ماكياج
ممثل لعرض مسرحي.

في معرض هندي.

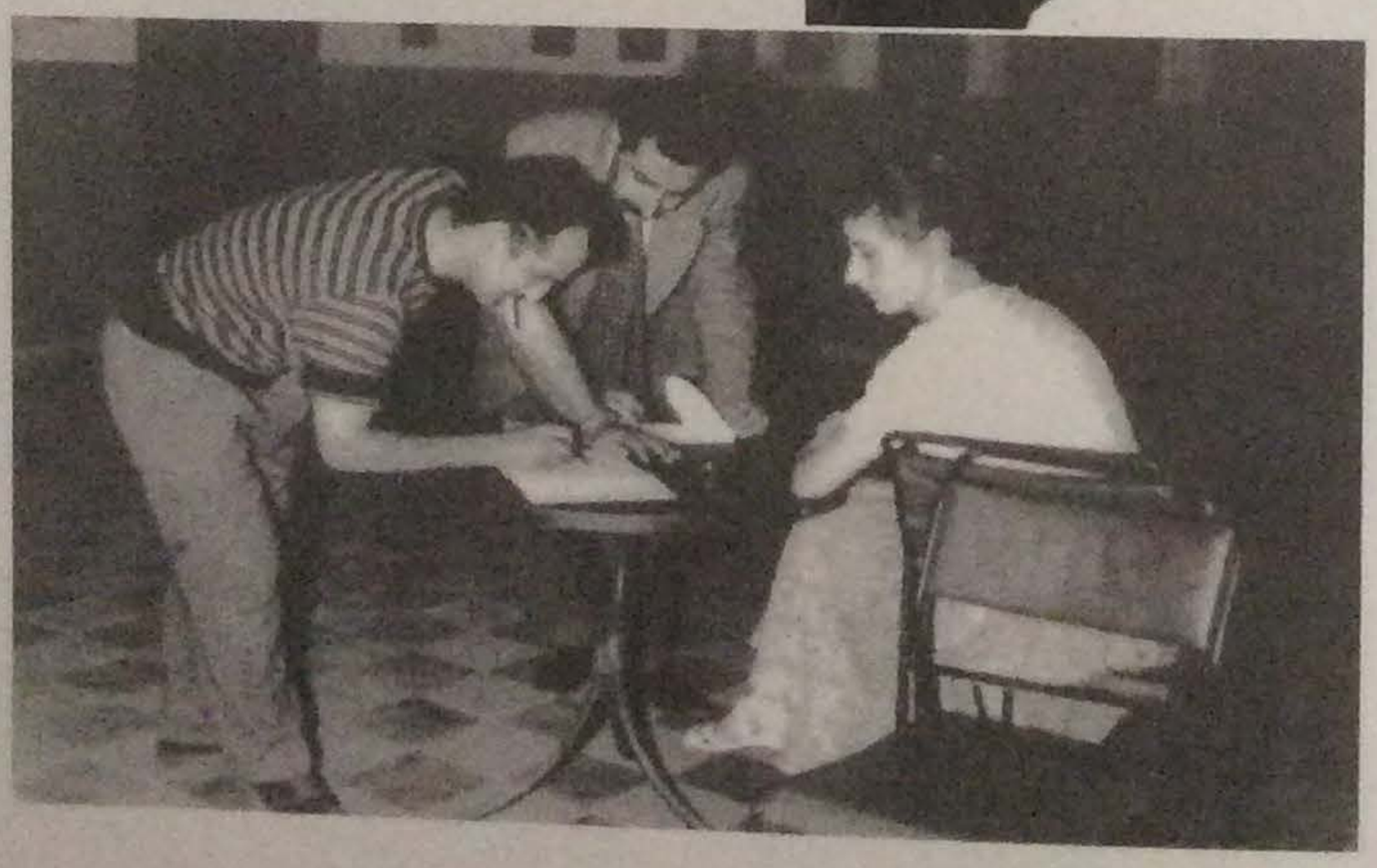

يكتب كلمة في سجل
معرض فني.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

البغداديّات

بعين الفنان، أدركت لورنا عند وصولها إلى بغداد أنها وقعت على كنز من الموضوعات الّتي ما كان يتاح لها أن تصادفها أو ترسمها في بريطانيا. وكان من الصور الأولى الّتي انطبعت في ذاكرتها صورة الباب الخارجي لبيت أسرة سليم، ووعاء الماء الفخّاري الموضوع على الدرج.

في تلك الفترة، كان معظم الرسامين العراقيين الّذين عادوا من دراستهم الفنية في الخارج يرسمون لوحاتهم وفق النظرة الغربية في انتقاء الموضوعات. أي أنهم يتنقلون ما بين تصوير الطبيعة أو رسم الحياة الجامدة: مزهرية ورد، طبق فاكهة، جسر عتيق... حتى عندما يرسمون الوجوه، كانوا يفعلون ذلك حسب الأساليب الّتي تعلّموها في معاهد أوروبا.

وهكذا، فإن لورنا سليم كانت من الأوائل الّذين رسموا نساء بغداد الشعبيات، بأثوابهن ذات الألوان المشرقة والنقوش المشجرة، وبالحلي الذهبية الّتي تتباهى بها كلّ سيدة وفتاة.

تقول لورنا إن تلك المشاهد كانت مألوفة بالنسبة لرسّامي البلد، إذ فتحوا أعينهم عليها ونشأوا وسطها بحيث إنّها ما عادت تستلفت انتباههم. أما هي، الّتي خلّفت وراءها مدناً رمادية يلفها الضباب، فقد سحرتها مناظر النساء اللواتي يحملن على رؤوسهن جرار الماء أو أطباق القيمر(*) أو رزم الحطب، ويسرن متراقصات بخفّة أخّاذة.

صارت تجلس كل صباح في انتظار بائعة اللبن، لكي ترسمها، بل تتنافس في رسمها مع جواد. واستهوتها تلك العباءات السود الّتي تنفتح عن أثواب حمراء وبرتقالية وزرقاء شذرية، بحيث إنها أقلعت عن محاولاتها الأثيرة لتقليد تجريديات بيكاسو وراحت تلاحق أم العباءة! والغريب أن لورنا وجدت في الألوان البنية والترابية والصفراء خير مفتاح للوحاتها. أما اللون الأخضر الّذي يلف أرياف بريطانيا فقد استعصى عليها، واعتبرته لوناً غير قابل للرسم.

آنذاك، كان فائق حسن يرسم رجال البادية أو أجواء شمال العراق. وكان جواد

يرسم الجوامع والمآذن ذات القباب الزرق، لأن الناس كانوا يحبون تلك الموضوعات ويقبلون على شرائها. وبعد عودة نزيهة سليم، شقيقة جواد، من دراستها في باريس، عكفت بدورها على رسم أجواء محيطها البغدادي.

قلة من العراقيين كانت تقتني اللوحات في تلك الفترة، وغالبية الزبائن كانوا من الأميركيين والإنكليز المقيمين أو العاملين في بغداد، وقد أحب هؤلاء اللوحات الّتي تصور المراقد والجوامع والقباب الذهبية، وأقبلوا على شرائها من جواد، إما تقديراً لقيمتها الفنية، أو لأنهم اعتبروها تذكاراً من بلد غريب، يشترونها مثلما يشترون سجّادة أو آنية نحاسية، إذ لم تكن هناك كتب سياحية مصوّرة أو بطاقات بريدية تحت تصرّف الزوار. ولم يكن ثمن لوحة من تلك اللوحات يتجاوز الخمسة دنانير أو العشرة في أحسن الأحوال.

في لندن، قبل العودة إلى بغداد، اعتنى جواد برسم لورنا وهي ترتدي الهاشمي(**). وقد استعار ذلك الزي من سانحة أمين زكي الّتي كانت تدرس الطبّ في لندن. وعلى غرار لوحات ماتيس الشرقية، كتب جواد على اللوحة كلمتين بالعربية، هما «لورنا» و«لندن»، إذ كان متأثراً آنذاك بالرسام الفرنسي الذائع الصيت.

حتّى هذه اللحظة، ما زالت لورنا تذكر كيف جلست قبل خمسين عاماً، هادئة لا تتحرك، على فراش زميلها وحبيبها العراقي في الغرفة الّتي كان يسكن فيها أيام الدراسة، لكي ينجز تلك اللوحة الجميلة، وقد بان خلفها غطاء ملون كان جواد قد جاء به معه من بغداد.

بقيت لوحة لورنا مع صاحبتها حتى سنوات قريبة. بعد ذلك وهبتها إلى ابنتها زينب، واكتفت بنسخة مصورة عنها تعلّقها في غرفتها حيث تسكن اليوم.

والغريب أن زوجة جواد وابنتيه لا يملكن من أعماله حالياً غير لوحة لورنا ولوحة ثانية كان قد عرضها في رحلته إلى أميركا في العام ١٩٥٤. لقد تعلقت لورنا بلوحة له عنوانها «الصباح» وتمنت الاحتفاظ بها، لكن تلك اللوحة بيعت في أميركا، ضمن العديد من البغداديات. كان جواد قد شق ملامح مدرسة بغدادية جديدة في الرسم الحديث، وبدأ تلاميذه يتأثرون به. بل إن لورنا لا تخفي أنها تأثرت بزوجها وتعلمت منه كثيراً، فقد كان أكبر منها بتسع سنوات، ويمتلك خبرات اكتسبها من دراسته في باريس وروما، قبل لندن، ومن عمله في المتحف العراقي قبل التحاقه بمعهد سليد. أما هي، فكل ما تعرفه عن الفن هو ذاك الّذي التقطته في سليد.

«نعم، تأثرت بجواد، ومن كان قادراً ألا يتأثر به؟ لكنني لم أنقل عنه. فقد كنا نعمل بطريقتين مختلفتين تماماً. كان هو يرسم من

المخيلة، ويعرف بدقة ماذا يريد أن يضع على القماش، وينهي اللوحة في ساعتين، لأنها مرسومة بشكل ما في رأسه. أما أنا فأبدأ بالتخطيط أولاً، وأرسم بالاستناد إلى منظر مرئي».

انصرف جواد إلى التأمل في الفن الإسلامي، وراح يحاول أن يقبض على ألوان الخزف العباسي وطلاء القباب وزخرفة المآذن. أما لورنا فكانت ترسم الناس في عالمها الجديد، وتطارد الأعرابيات حين يمررن في المدينة على ظهور الحمير، وسيقانهن تهتز ملفوفة بالأربطة القماشية، وأصابع أقدامهن معفرة بالتراب.

رسم جواد أيضاً، النساء الشعبيات. ومنها تلك اللوحة الرائعة لامرأة تحمل على رأسها صندوق العرس، ولوحة النساء حاملات ماكنة الخياطة. وما زالت هذه اللوحة الأخيرة في حوزة شقيقته نزيهة في بغداد.

وبقدر حبّه الجم لبغداد وناسها ومحلّاتها الشعبية، كره جواد العادات العقيمة والتقاليد الّتي تخنق حرية البشر. لقد عاش في مجتمعات عديدة، وأدرك أن الإنسان هو الإنسان في كل مكان، لكنه سخر دائماً من لجوء بعض الناس إلى المخاتلة والنفاق والنميمة والحسد والتمسك بأعراف بالية. لقد أراد أن يجعل من نبذه لمظاهر النفاق، وسخريته من المنافقين، أسلوبه في الإعلان عن نفسه وعن تمرده وعن اختلافه.

تذكر لورنا أن زوجها كان شديد الضيق لاستحالة توفير نموذج نسائي حيّ يقف للرسم أمام طلبة معهد الفنون الجميلة، في حين أن الموديل الرجالي كان متوفراً. لقد اعتبر أن ذلك نفاق على حساب الحاجات الضرورية للفنان. ولم يكن ضيق جواد نابعاً من حاجته شخصياً للموديل النسائي، فهو قد بدأ دراسته الفنية في باريس وهنو دون العشرين من العمر، وتمرن على رسم النماذج الحية طيلة فترة وجوده خارج العراق، لكنه أراد لتلاميذه في معهد الفنون في بغداد أن يحصلوا على الفرصة ذاتها.

لاحظت لورنا ضيق زوجها ببعض النظرات المتخلفة لوظيفة الفنان، كما كانت شاهدة على بعض المواقف الّتي ساهمت في انزعاجه. كان اهتمامه بالنحت قد بدأ يغلب على عمله في الرسم، وقد تقدم في تلك الفترة بمصغر لنصب على هيئة حصان حديدي، على أمل أن يوضع في ميدان سباق الخيل في المنصور. لكن الشركة المشرفة على ميدان السباق، رفضت التصميم. كما رفض المصرف الزراعي نموذجاً آخر تقدم به جواد ليوضع في المبنى الجديد للمصرف، ويمثّل فلّاحاً وزوجته وطفله يتوسطهم جذع نخلة. وكانت حُجّة المشرفين على تزيين المبنى أنهم يريدون تمثالاً مباشراً: فلاحاً يقف أمام شباك المحاسب وبيده رزمة أوراق نقدية!

لم يتسلل الإحباط إلى نفس جواد فهو، على رغم انزعاجه، كان يأخذ الأمور على سبيل الفكاهة، ويسخر من العقليات الجامدة الَّتي تحاول التحكم في عمل الفنان. إنه الواثق من موهبته إلى حدّ التهكم على رافضيه، الفنان الحر الَّذي لا يقسر نفسه على عمل لا يروق له. لكنه يدرك أن الفنانين أيضاً بحاجة إلى المال لكي يعيشوا وينفقوا على عائلاتهم، ولا بدّ لهم من رسم لوحات تعجب الناس ليقتنوها.

وأبرز الَّذين كانوا يقتنون اللوحات في تلك الفترة من أواخر الخمسينيات، المهندسان رفعة الجادرجي ومدحت مظلوم، وصبيح شكري، وعدد من الأجانب.

تمنت لورنا لو رافقت زوجها في الرحلات الفنية الاستطلاعية الَّتي كان يقوم بها مع رفاقه، أمثال فائق حسن وزيد صالح، إلى شمال العراق. لكنها كانت حبلى، وقد نصحتها طبيبتها بالخلود إلى الراحة. إنها ما زالت تحتفظ بين أوراقها بعدد من الصور الفوتوغرافية الَّتي التقطها جواد وصحبه وسط آثار نينوى. لقد بقيت الصور والآثار ورحل الأشخاص.

كانت الجماعات الفنية الجديدة الَّتي تشكلت حول فائق حسن وجواد سليم وحافظ الدروبي قد أشاعت حيوية ضاجّة في الوسط التشكيلي العراقي. وكان المعماريون العائدون من الدراسة في الخارج غير بعيدين عن نشاط زملائهم التشكيليين. لقد انتخب الفنانون الشبان لجمعية الفنانين العراقيين رئيساً هو المهندس المعماري محمد مكية. وكان مكية قد درس في جامعتي ليفربول وكمبريدج قرابة العشر سنوات، وعاد إلى العراق برؤية جديدة تؤمن بأن العمارة هي أُم الفنون، وبأن الفن الرفيع لا يمكن حصره في المعرض والمتاحف وعزله عن البيئة.

أول مشروع أنجزه محمد مكية كان بناية معهد الأمومة والطفولة في ساحة الشيخ عمر. وهو قد ترك ثلاث فجوات في الواجهة، على أمل أن يملأها جواد سليم بأعمال نحتية.

وإذا كان مكية قد تعرف على جواد في باريس، سنة ١٩٣٨، فإن الصداقة بينهما توطدت بعد إنهاء الاثنين دراستهما وعودتهما إلى العراق يحملان لهفة الإنجاز والتطبيق.

ويعود الفضل لمحمد مكية في تشجيع لورنا على رسم بيوت بغداد القديمة، بعد ذلك بسنوات، بحيث تخصّصت فيها واشتهرت بها، وما زالت تعيد تشييدها في لوحاتها حتى اليوم.

(*) القيمر: قشطة حليب الجاموس.

(**) الهاشمي: ثوب أسود فضفاض تلبسه النساء.

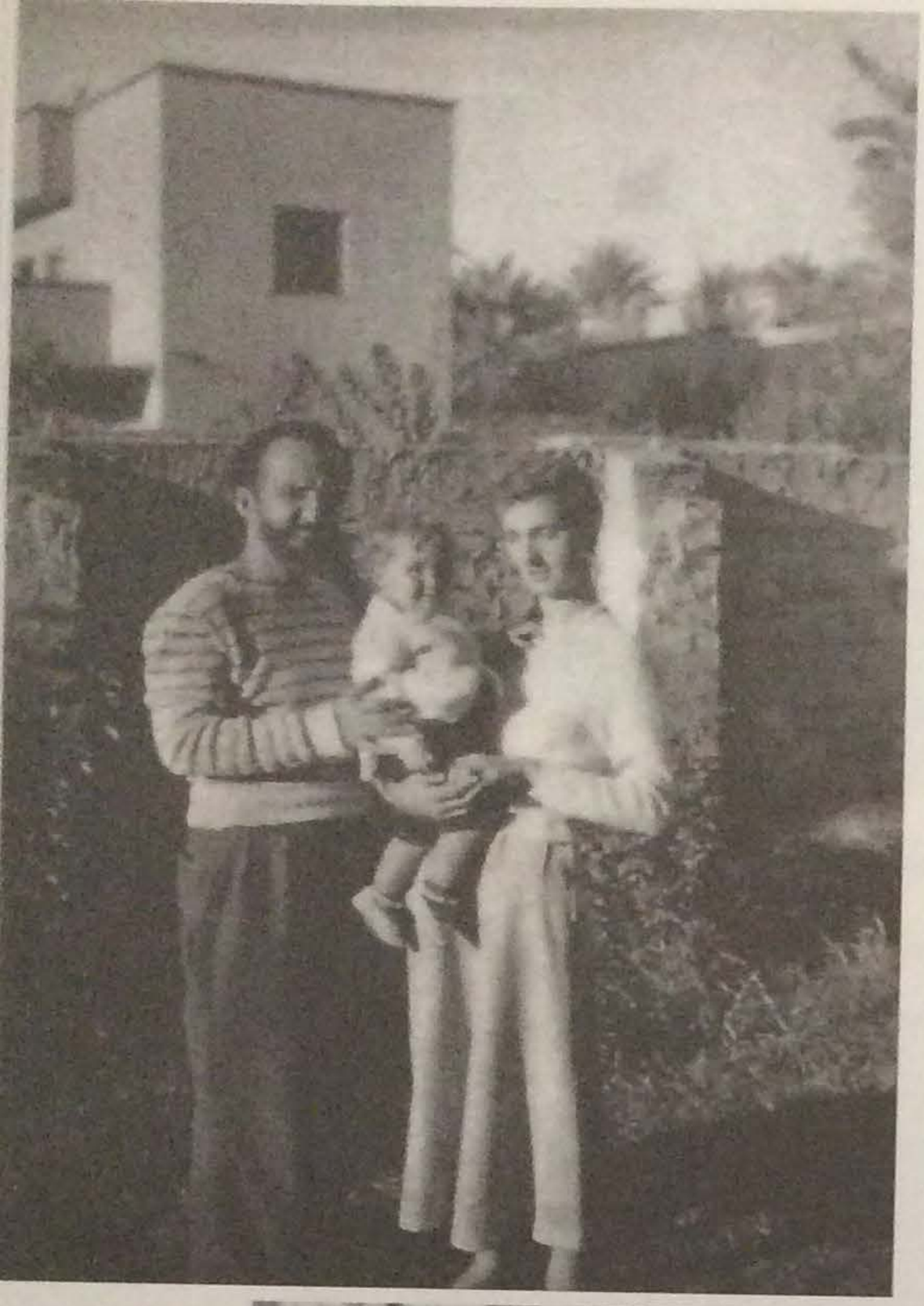

لورنا وزينب وجـــــواد.

عند ولادة مريم في مستشفى سالم الحيدري.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

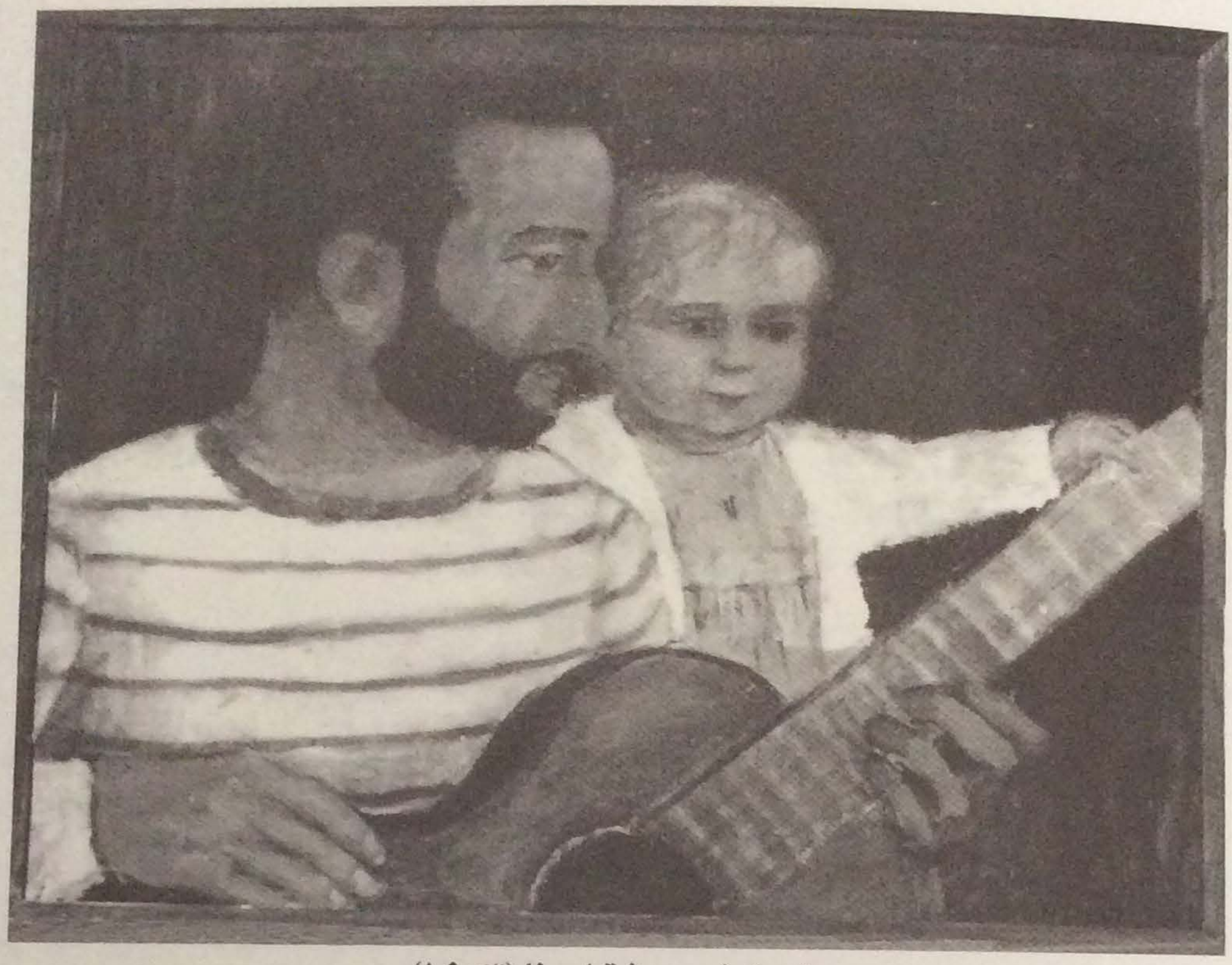

جواد وزينب بريشة لورنا (١٩٥٣).

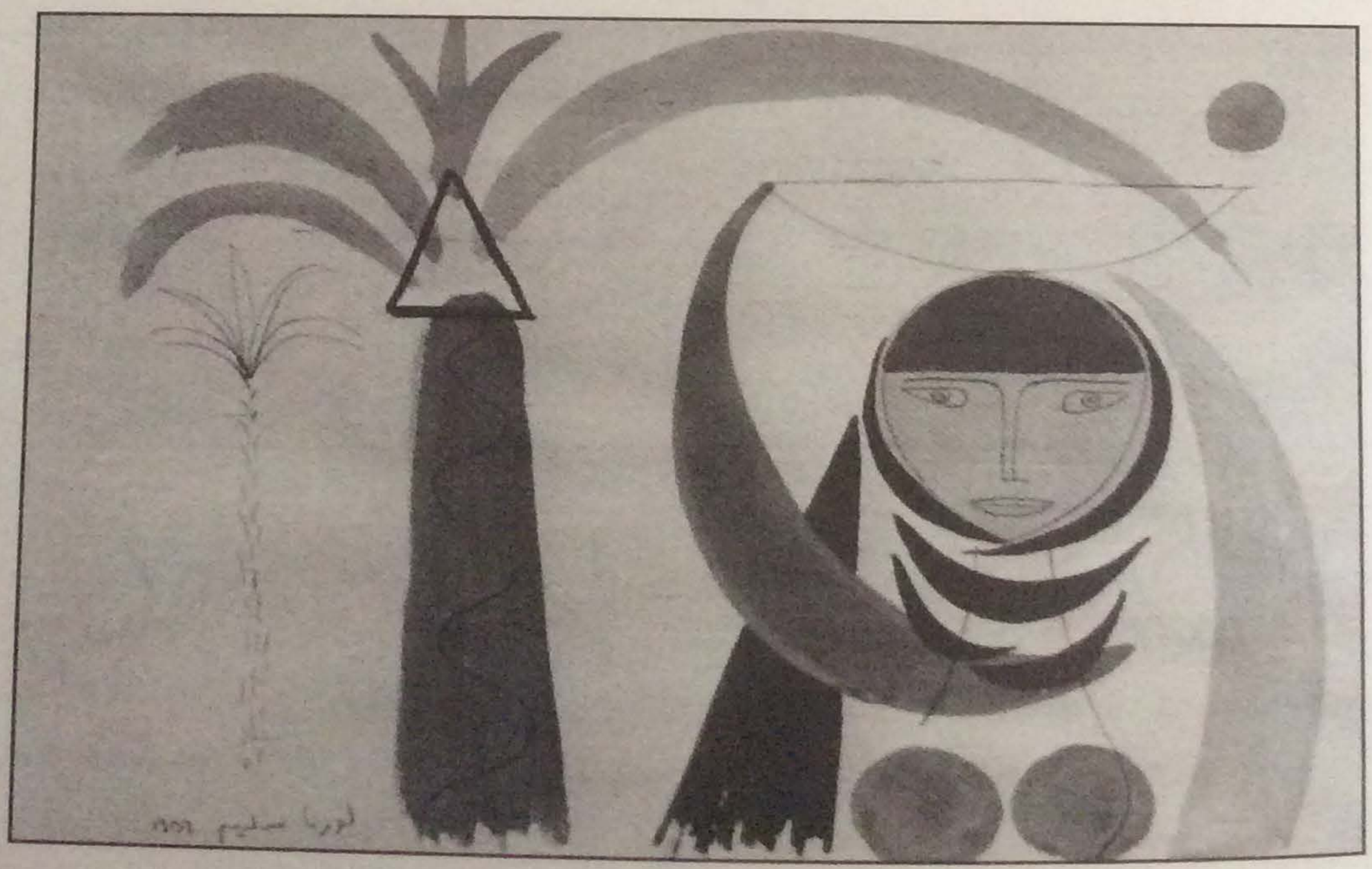

«امرأة ونخلة» لوحة بريشة لورنا.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

آخر المطاف

في تموز ١٩٥٨، كانت لورنا تمضي إجازة هادئة مع زينب ومريم في شمالي ويلز، بصحبة والديها، بينما بقي جواد في بغداد لارتباطه بأعمال مختلفة.

صباح الخامس عشر من ذلك الشهر، نزل السيد هنري هيلز لشراء الصحف، وعاد مسرعاً ليقول للورنا: لقد قتلوا ملككم!

أمضت العائلة العطلة كلها بعد ذلك في متابعة الصحف وتسقّط أخبار العراق في الإذاعات المختلفة. ومرّ الأسبوع الأول بعد الثورة ولورنا غير قادرة على الاتصال ببغداد، إلى أن جاءت برقية من جواد يطمئنها فيها إلى أنهم جميعاً بخير.

في آخر الصيف، عندما انتهت الإجازة والتأم شمل الأسرة الصغيرة في بغداد مجدداً، كان جواد شديد الحماسة وهو يحكي للورنا كيف أنه كان سعيداً بالثورة، وكيف نزل إلى الشارع مع الجيران لتأييدها. ولمست لورنا الاستبشار ذاته عند بقية الأصدقاء العراقيين، لكنهم كانوا يشعرون بالأسف لمقتل الملك الشاب فيصل الثاني ونساء العائلة المالكة.

تؤكد لورنا أن زوجها أحب الزعيم عبد الكريم قاسم وحمل له كل التقدير كرجل ذي خصال إنسانية وليس كسياسي. فالسياسة لم تكن تهم جواداً إلّا بمقدار ما تؤدي إليه من تحسين لأوضاع الناس.

وعندما سافرت لورنا مع زوجها بعد ذلك إلى إيطاليا لإنجاز نصب الحرية، لاحظت أنه أخذ معه صورة للزعيم وعلقها على جدار المشغل الّذي كان يعمل فيه.

جاءت فكرة نصب الحرية من المهندس المعماري رفعة الجادرجي. لقد اقترح إقامة جدار عريض مرتفع، في ساحة من ساحات بغداد الكبرى، على هيئة بوابة عالية أو لافتة تستند من جانبيها على الأرض. وكان المطلوب من جواد نحت مشهد بارز من مادة البرونز، يعلق على صدر اللافتة.

أما جواد، فلم يكن يريد النصب مرتفعاً ومعلقاً بعيداً عن المارة. أراده قائماً على الأرض، في متناول الناس، بحيث يستطيعون

الاقتراب منه وتفحّصه عن كثب وتلمس منحوتاته بالأيدي.

خشي رفعة، في حالة وضع النصب بمستوى الشارع، أن يتسلقه الصبية ويهدروا هيبته، أو أن يكتب المارة أسماءهم فوقه. لكن هذه الفكرة لم تزعج جواداً، إذ كان يرى أن كل نصب يكتسب مزيداً من الجمال عندما يترك الناس بصماتهم عليه، مثل الآثار العالمية المزينة بأسماء آلاف السياح والتواريخ المحفورة عليها، دون أن يفسد ذلك جلالها أو قيمتها الفنية.

وفي محاولة أخيرة لإقناع رفعة، اقترح جواد إقامة بركة مائية أمام النصب، تمنع العابثين من الوصول إليه. وقال إنّ انعكاس المنحوتات على صفحة الماء سيكون مثيراً.

حسم رفعة الجادرجي الجدل قائلاً إنّه تمكن بصعوبة بالغة من إقناع المسؤولين بفكرة نصب كبير كهذا، وبالتالي فإنّه يخشى أن يصرفوا النظر عن الفكرة إذا تضاربت حولها الآراء.

بعد هذه الحجة، وافق جواد على إقامة النصب كما يريدون. واستُدعي إلى مقابلة عبد الكريم قاسم للاستماع إلى توجيهاته قبل البدء بالتصميم. وخرج من المقابلة شديد الارتياح والإعجاب بشخصية الزعيم، لكنه تأكد أن الرجل ليس رجل سياسة، وأنه سيجد صعوبة في التعامل مع أهلها.

وخلافاً لما أشيع، توضح لورنا أن الزعيم لم يطلب من جواد أن يضع صورته، (صورة قاسم)، وسط الجدارية، كما زعم بعضهم. لكن بعض المنافقين المحيطين بالزعيم اقترحوا عليه أن توضع صورته في قلب الشمس السومرية الّتي تتوسط النصب. ويبدو أنه لم يخضع للاقتراح بدليل أن الصورة لم توضع في النهاية.

أعطيت لجواد الحرية الكاملة في عمل الأشكال النحتية الّتي يتضمنها النصب، وعددها أربعة عشر شكلاً، باستثناء منحوتة الجندي العراقي الّتي أُريد لها أن تكون كلاسيكية الطابع، تمثل مقاتلاً يرتدي البزة العسكرية ويحمل السلاح، بلا شطحات حديثة أو تجريدية.

في أحد أيام آذار ١٩٥٩، سمعت لورنا طرقاً على باب البيت، وكان الزائر رفعة الجادرجي الّذي جاء ليبلغهم بأن المسؤولين يريدون مُصَغّر النصب، (الماكيت)، خلال ثلاثة أيام، وبعدها بأسبوع لا بد أن يكون جواد في إيطاليا لبدء التنفيذ.

صرخ جواد: هذا مستحيل... إنهم لا يعرفون عمّا يتحدثون!

وتمّ التوصل إلى حل وسط يقضي بإعداد مصغر للجزء الأوسط من النصب، يجري عرضه على المسؤولين قبل السفر إلى إيطاليا. وتم ذلك فعلاً في غضون أسبوعين، وأعطي الضوء الأخضر للتنفيذ.

الجزء الأوسط من نصب الحرية.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

لم يكن في بال لورنا انها سترافق زوجها في إيفاده إلى إيطاليا. لكن حركة الشوّاف قامت في الموصل آنذاك، وتوتر الجو السياسي والأمني في البلد، ولم يرغب جواد بترك زوجته وحيدة مع الطفلتين في تلك الظروف. ولأن جواز لورنا كان بريطانياً، فقد كانت قادرة على السفر بسهولة دون الحاجة إلى موافقات خاصة تستغرق وقتاً.

تركوا بيتهم في الصليخ على حاله، وسيارتهم الفيات الصغيرة في مرآبها، وسافروا كمن سيغيب يوماً أو يومين. والحقيقة أن لورنا كانت تظن أنهم عائدون بعد شهر من الزمن، أو ستة أسابيع على الأكثر، لكنها بقيت مع جواد في إيطاليا سنة ونصف السنة.

كان مقرراً أن يعودوا قبل تموز من السنة نفسها، وأن يأخذ النصب الضخم مكانه على الجدار الّذي جرى إعداده له، ليتولى عبد الكريم قاسم إزاحة الستار عنه في العيد الأول للثورة.

في حزيران، لم يكن أي شيء قد اكتمل. وطار رفعة إلى فلورنسا على عجل لإبلاغ جواد بأن الزعيم يريد أن يدشن النصب في ١٤ تموز. وأمام المأزق الّذي وجد جواد نفسه فيه، لم يجد حلاً سوى إرسال القطعة النحتية الوحيدة الّتي اكتمل العمل فيها، وتمثل امرأة تحمل مشعلاً وترمز إلى الحرية، ليجري تعليقها على الجدار، ويزاح الستار عنها في عيد الثورة، إنقاذاً للموقف، ولحين اكتمال العمل في بقية الأجزاء.

اختار جواد إنجاز المنحوتات في إيطاليا لأنها الأشهر في ميدان صب البرونز، عدا عن أنه كان يعرف البلد ويتكلم لغته. وهو قد بقي مع أسرته شهراً في روما، لحين الانتهاء من ترتيبات حجز المشغل الّذي سيعمل فيه في فلورنسا، ثم انتقلوا بعدها إلى تلك المدينة الساحرة الّتي يكمن الفن في كل عطفة من منعطفاتها، بحيث إن لورنا وصفتها بالفردوس وتمنت لو تمضي فيها بقية حياتها.

استأجرت الأسرة شقّة في فلورنسا، واتخذ جواد لنفسه مشغلاً يعمل فيه، غير بعيد عن الشقة، في جادة الفنانين، (ڤيا دي أرتيستي). أما صبّ البرونز فكان يجري في بلدة بستويا القريبة من فلورنسا.

في المشغل، كانت هناك رفوف على امتداد الجدار، تصطف عليها رؤوس منحوتة لرجال غامضين ذوي سحنات غريبة. وقد اعتاد جواد أن يبدأ عمله كل صباح بإلقاء التحية على تلك التماثيل، معتبراً أصحابها الشهود التاريخيين على العمل الّذي يقوم بإنجازه.

انتهز والدا لورنا فرصة وجودها مع أسرتها في فلورنسا، فسافرا لزيارتها هناك وأمضيا وقتاً طيباً شجعهما على تكرار الزيارة بعد أشهر.

ولأن فلورنسا كانت مناسبة لاجتماع شملهم بمن يحبون من عراقيين وبريطانيين، فلقد اعتبرت لورنا مقامها الإيطالي أشبه بالحلم منه بالحقيقة.

وفي فلورنسا، التقى جواد ولورنا بالنحات محمد غني حكمة الّذي كان تلميذاً لجواد في معهد الفنون ببغداد قبل أن يسافر إلى إيطاليا لمواصلة دراسته. وكان من الطبيعي أن يقوم التلميذ بمساعدة أستاذه في إنجاز ذلك المشروع الفني الكبير.

جرى الاتفاق مع متعهد إيطالي يدعى بيرتللي على تأمين المرمر لجدارية الحرية، وأيضاً لنصب الجندي المجهول الّذي كان يجري تشييده في بغداد في الفترة نفسها. ولم يكن جواد مكلفاً بالتنفيذ الفني فحسب، بل ألقيت عليه المسؤولية المالية عن شراء المرمر والبرونز، الأمر الّذي أصابه بإرهاق شديد انتهى بانهيار عصبي.

وكان الزوجان أثناء مكوثهما في روما، قد التقيا بصديق العائلة المهندس نزار علي جودة الأيوبي وزوجته البريطانية ألن. وقد وجه نزار اللوم إلى جواد لقبوله المسؤولية المالية، قائلاً إنها عبء زائد لا ينسجم ودوره كفنان مهمته الإبداع لا مَسْك الحسابات.

بعد ذلك اللقاء، دب القلق في نفس جواد وبات شديد التوتر، يمضي الليالي يذرع الشقة ذهاباً وإياباً. ولم تعد لورنا قادرة على التمييز بين ما هو حقيقي من مخاوفه، وما هو مجرّد وسواس.

أخبرها يوماً أن برقية جاءت من بغداد حول المبالغ الّتي طلبها، (٣٠ ألف دينار أو ما شابه). لكنه لم يكن قد طلب من بغداد أي مبلغ بعد، ولهذا صار يشكّ بأن هناك في السفارة العراقية في روما من يحاول الاستحواذ على أموال من وراء ظهره.

بدأ جواد، حسب ما ترويه لورنا، يتخيل أيضاً أن هناك من يراقبه ويتآمر عليه لمنعه من إنجاز النصب، بل وإن هناك من يدبّر لاغتياله. وأخذ يمنع زوجته وابنتيه من مغادرة البيت، ويرفض الرد على مكالمات محمد غني. ولعلّه ظن أن تلميذه هذا يتجسّس عليه أيضاً.

تؤكد لورنا أن كل تلك الهواجس كانت مجرد أوهام سيطرت على زوجها بسبب الإرهاق في العمل وضخامة المسؤولية الملقاة على عاتقه. وهي قد اضطرت في النهاية إلى نقله إلى المستشفى، وشرحت للطبيب الظروف الّتي يمرون فيها، فارتأى الطبيب استبقاء جواد في المستشفى للعلاج، مؤكداً أنه سيتعافى خلال أسبوعين، وسيعود إلى كامل صحته بمجرد ابتعاده عن مصدر الضغط والإنهاك.

بعد أسبوع، تحسنت صحة جواد فعلاً، وعاد إلى سابق طبيعته، لكن لورنا فوجئت بإدارة المستشفى تمنعها من نقل زوجها إلى

البيت لأن القانون في إيطاليا كان يمنع خروج المرضى من مصحّات العلاج النفسي قبل مرور ثلاثة أشهر على دخولهم، إلّا إذا تم ذلك على مسؤولية أحد الأقرباء.

لجأت لورنا إلى السفارة العراقية فلم يأخذ أحد فيها المبادرة، وارتأوا طلب الإذن من بغداد أولاً. لقد كان وجود جواد في إيطاليا يتعلق بمهمة من تكليف الزعيم، ولا أحد يجرؤ على اتخاذ أيّ قرار بشأنه بدون العودة إلى الزعيم!

أخيراً، جاء رفعة الجادرجي على عجل من بغداد وتولى إخراج جواد من المستشفى على مسؤوليته، وحسم المشكلات المالية ألّتي كان السبب فيها بيرتللي بالدرجة الأولى، ذلك الإيطالي المسؤول عن تأمين المرمر والبرونز، إذ كان يسجل النفقات استناداً إلى وزن البرونز المستعمل في العمل، وهو من نوع سميك لم يسبق لعمال المصهر أن صبوا التماثيل به. ويبدو أن أحد العمال كان قد همس في أذن جواد بملاحظة حول ارتفاع تكاليف البرونز، فصار لا ينام الليل، ويتصور أن هناك من يحاول، عامداً، مضاعفة التكاليف.

المهم، أن الامور عادت إلى سيرها الطبيعي، وعاد جواد إلى منحوتاته يشتغل عليها بالحماسة السابقة، محاولاً اختصار الزمن إلى أدنى حد، وكأنه كان يحس بأن رصيده منه بات شحيحاً.

قبل ذلك، في العام ١٩٥٥، أصيب جواد بذبحة صدرية خفيفة، تعافى منها بسرعة ولم يعرها كثير أهمية. لقد كان في أوج شبابه وذروة إقباله على الحياة، لا مكان للأفكار السوداء في رأسه، ولا من يستطيع إقناعه بالمكوث في الفراش أو الخلود إلى الراحة. مع هذا، التزم بنصيحة الأطباء بترك التدخين والإقلاع عن الشراب.

وها هي النوبة الثانية تضرب قلب جواد في شتاء ١٩٦١، بعد فترة وجيزة من عودته وزوجته إلى بغداد، سعيدين باكتمال المنحوتات أخيراً وبأنها ستأخذ مكانها في ساحة التحرير، على الجدارية ألّتي لم يحظ أيّ فنان عراقي من قبل بإنجاز ما يماثلها حجماً وموقعاً. وعندما وصلت المنحوتات إلى بغداد مشحونة من فلورنسا على وجه السرعة، فإن وصولها كان أشبه بالحدث الفني الاستثنائي ألّذي قارب الاكتمال.

لم يكن ذلك الإنجاز الفني يخص جواداً وحده، ولا رفعة الجادرجي ألّذي رعى المشروع من ألفه إلى يائه، ولا محمد غني ألّذي كان الشاهد على ولادته، ولا لورنا ألّتي وقفت تُؤازر زوجها طيلة أشهر العمل، بل شعر كل فنان من أصدقاء جواد وتلاميذه أن هذا النصب يخصه بشكل من الأشكال.

جرى صف المنحوتات الثلاث عشرة على الرصيف في ساحة التحرير، أمام الجدار المرمري الأبيض الشاسع المواجه لجسر الجمهورية، استعداداً لتعليق كل قطعة في مكانها.

وكان بعض زملاء جواد يحرصون على الذهاب إلى موقع النصب كل يوم، لكي يتابعوا تفاصيل تعليق قطع البرونز في مكانها. وقد أراد النحات خالد الرحال، أن يستبق الأمور ويرى كيف ستبدو المنحوتات من بعيد، فقام في ذلك النهار الشتائي البارد من أوائل ١٩٦١ بتسلق الجدار المرمري، وأطل على المنحوتات السوداء المصفوفة على الأرض، وصار يصرخ إعجاباً وينادي على جواد لكي يوافيه إلى فوق ويطل على المشهد البديع.

تسلق جواد الجدار فشعر بالتعب، لكن المشهد كان يستحقّ المجازفة. لقد نظر الفنان إلى عمله شبه مكتمل للمرة الأولى، وكانت تلك هي النظرة الأخيرة أيضاً، ففي الصباح التالي أصيب بالذبحة الّتي أودت به.

تتذكر لورنا تفاصيل ذلك الصباح الحزين: «كنا في سيارتنا الصغيرة الّتي يقودها جواد متوجهين من دارنا في الصليخ إلى شارع الجمهورية، عندما توقف زوجي فجأة ونحن وسط إحدى المستديرات، وقال لي إنّه يشعر بوخز في قلبه. نزلت بسرعة لآخذ القيادة بدلاً عنه، وجاء شرطي المرور لينبهنا بأن التوقف وسط المستديرة ممنوع، لكنه حالما رأى حالة جواد عرض علينا المساعدة. ولم أدْرِ في تلك اللحظة ما أفعل. هل آخذه إلى المستشفى ومتاهاتها وأنا لا أعرف أحداً هناك، أم أعود به إلى البيت وأستدعي طبيباً من الأصدقاء؟

عدنا إلى البيت، واتصلت بالدكتور سالم الدملوجي الّذي جاء على عجل وتولى نقل جواد إلى المستشفى في سيارة إسعاف. ولم نجد في المستشفى الجمهوري غرفة منفردة خالية، لذلك وضعوا زوجي في قاعة المحاضرات، وهناك قدموا له الإسعافات المطلوبة.

مرّت عشرة أيام بدا لنا خلالها أن وضع زوجي قد تحسن وأنه تجاوز مرحلة الخطر. لكن معدته بدأت فجأة تنتفخ بالغازات، وراحت هذه تضغط على القلب بشدة، وتتسبب في مضاعفات خطيرة.

وفي نهار ٢٣ كانون الثاني ١٩٦١، بينما كنت أقف إلى جوار سريره أحمل بيدي قنينة المغذّي، وقد وقف الطبيبان الصديقان سالم الدملوجي وخالد القصاب في الجهة المقابلة يتباحثان فيما يمكن عمله لإنقاذ حياته، لفظ جواد أنفاسه الأخيرة في صمت وهدوء، وغادَرَنا مسرعاً كعادته للحاق بموعد ينتظره، وكان دون الثانية والأربعين من العمر».

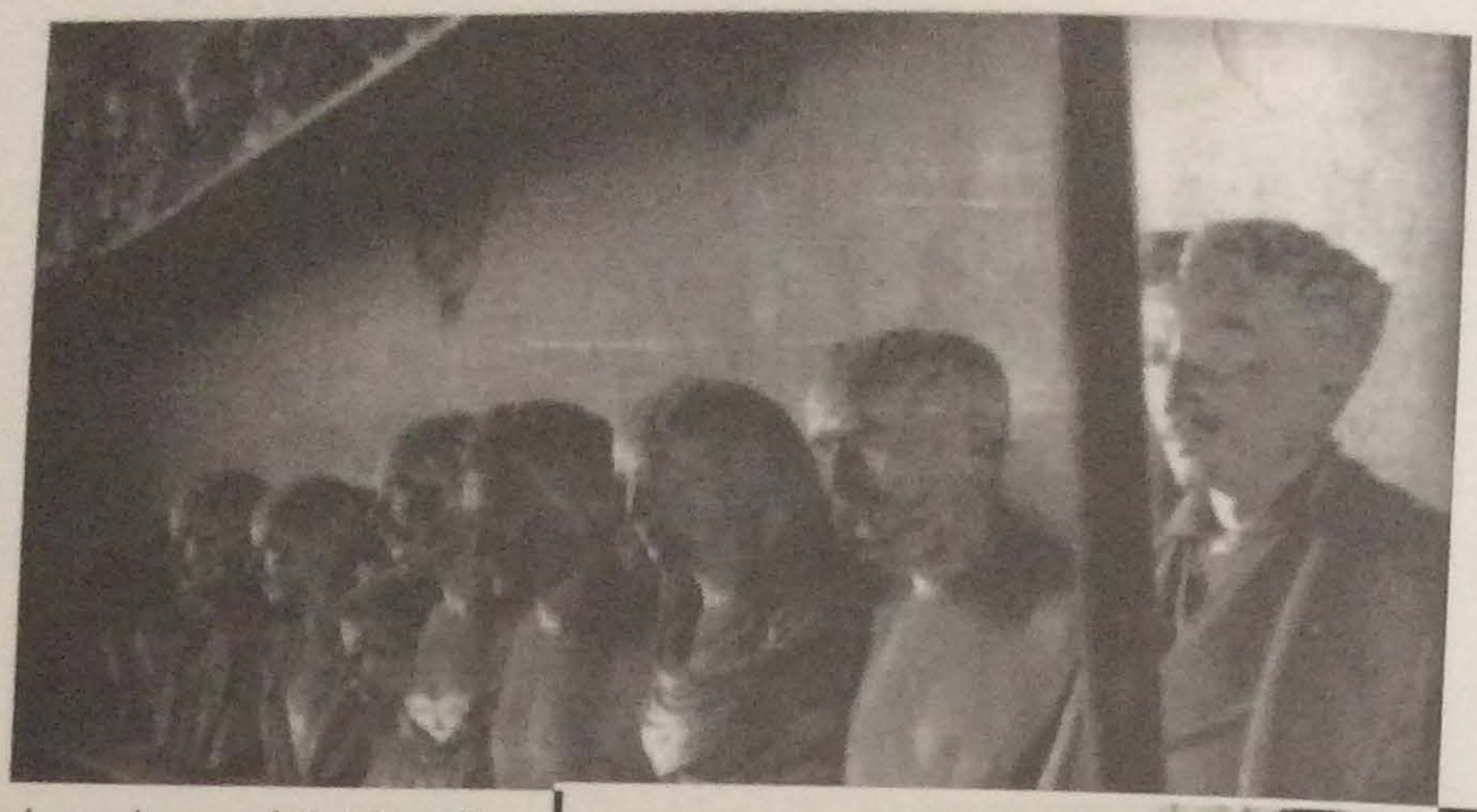

التماثيل الشهود على عمل جواد في محترف بستويا.

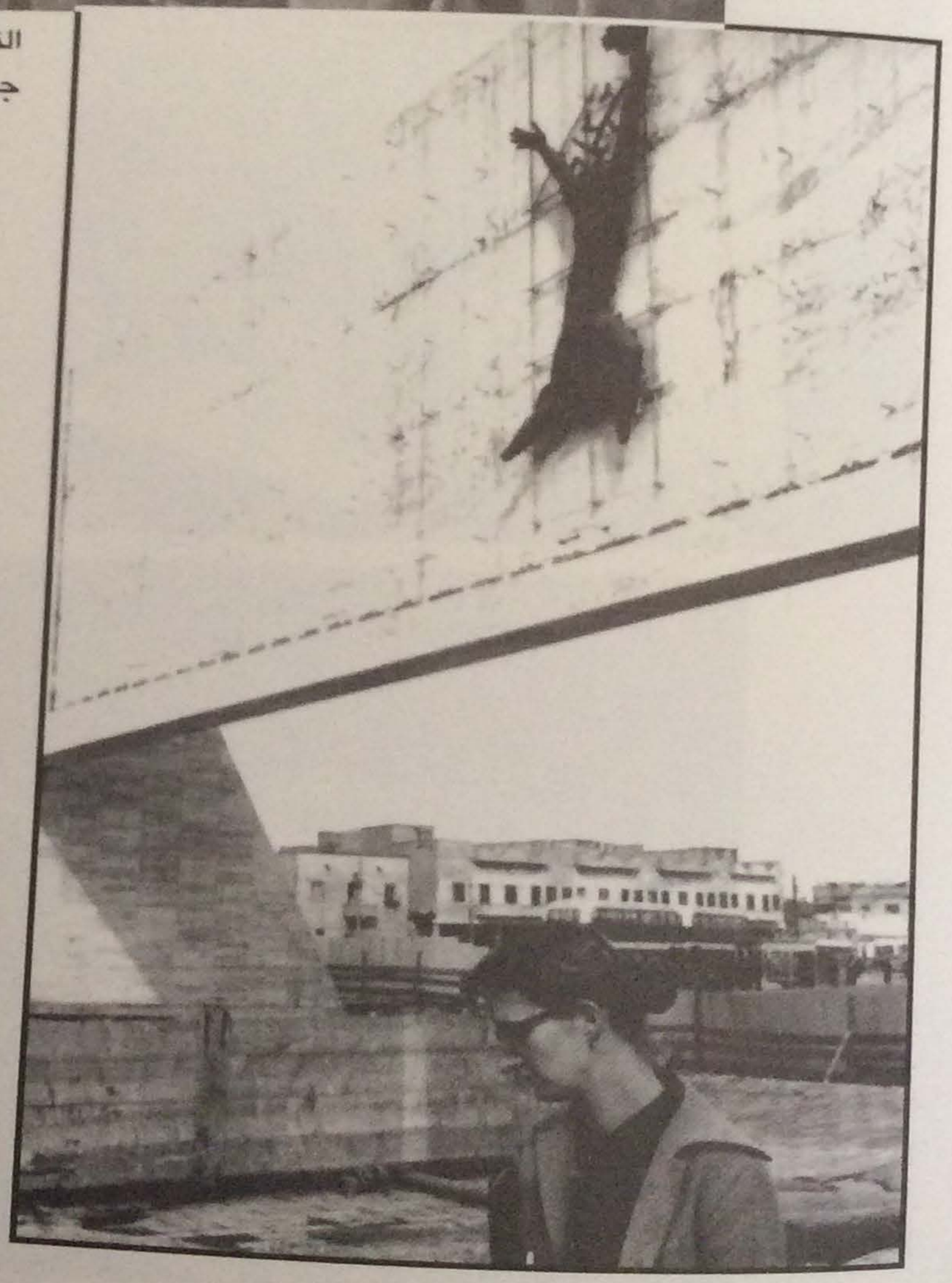

لورنا تحت نصب الحرية قبل اكتماله.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

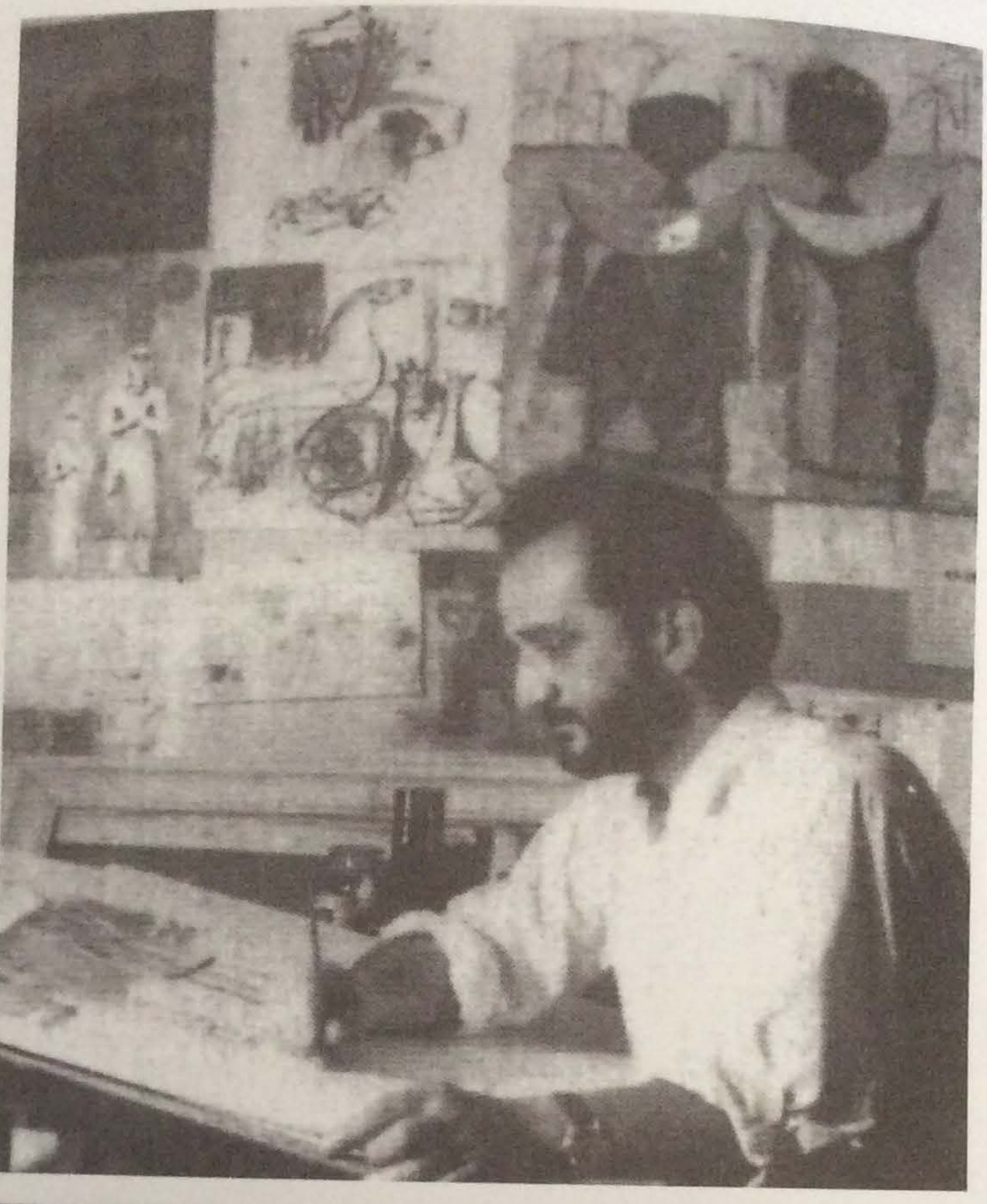

آخر صورة لجواد في محترفه.

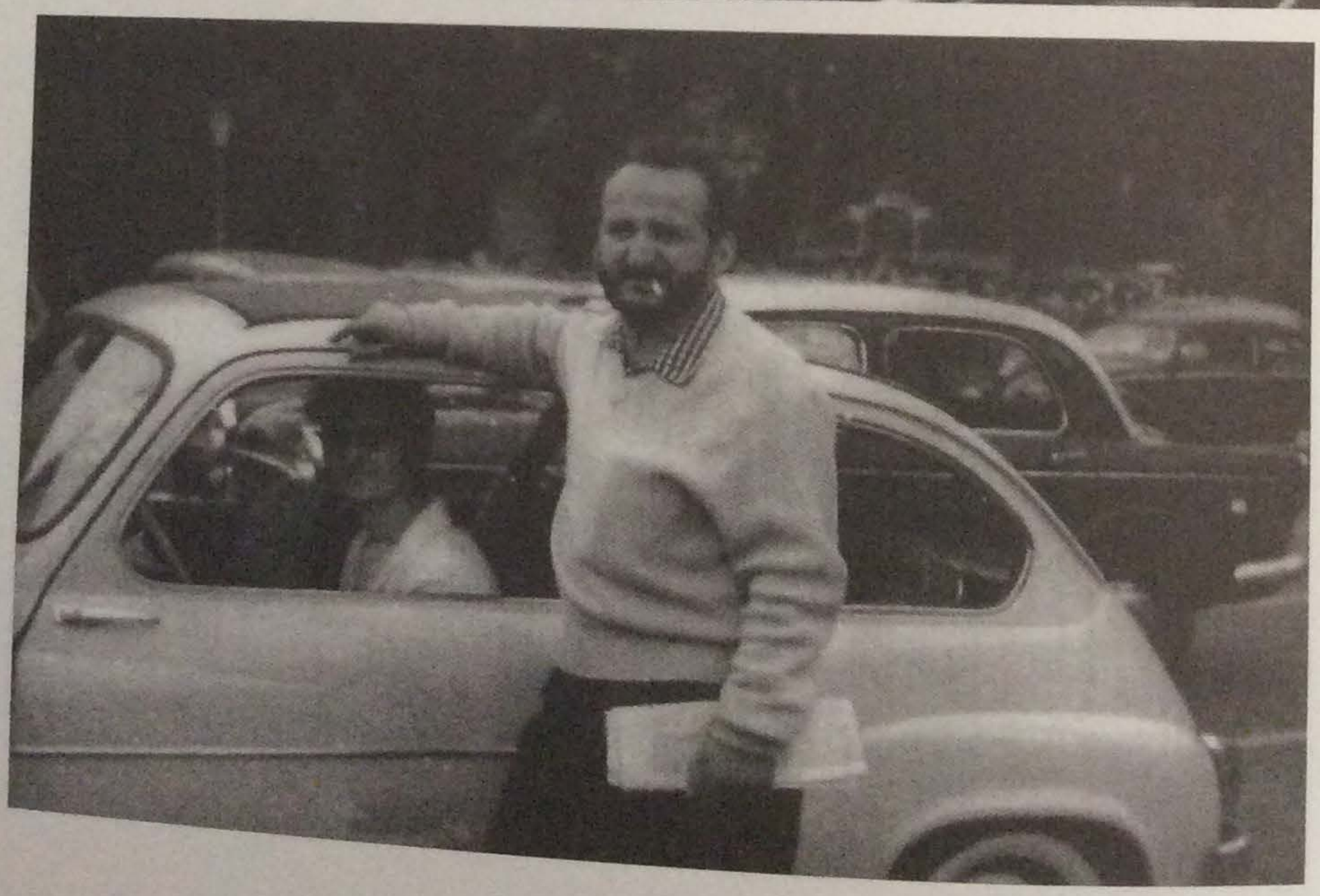

جواد الى جانب السيارة الفيات التي دهمته فيها الأزمة القلبية.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

فورَ انتشار خبر وفاته، جاء خالد الرحال إلى المستشفى بناء على طلب من الدكتور خالد القصاب، ومعه كمية من الجبس الّذي يشتغل عليه النحاتون، وقام بصب قناع لوجه جواد... قناع الموت. ثم جرى نقل الجثمان إلى معهد الفنون الجميلة الّذي أغلق أبوابه لمدة ثلاثة أيام حداداً. ومن هناك انطلقت الجنازة محمولة على سيارة بيك آب إلى مقبرة الأعظمية، حيث ألقى الزملاء والأصدقاء كلمات الوداع الأخير.

لم تشارك لورنا في التشييع لأن العادة تقضي ببقاء النساء في بيت العزاء.

لكن طالبات جواد سِرْنَ في مقدمة الموكب المتجه نحو المقبرة، وكن يَتَّشِحْن بالسواد، وسار وراءهن حشد الطلبة والأساتذة والأصدقاء.

أقيم مجلس الفاتحة للنساء في بيت لورنا. ولأن أم جواد كانت مريضة جداً، قرر أبناؤها كتم خبر وفاته عنها. ولما علمت بالخبر فيما بعد، غضبت غضباً يوازي حزنها، وقالت إنّها ليست طفلة ليكتموا عنها خبراً مثل هذا، وعاتبت أبناءها بمرارة لأنهم حالوا بينها وبين توديع جواد الوداع الأخير.

جواد محمولاً الى مثواه الأخير.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

فراغ الرحيل

وجدت لورنا نفسها في مأزق مادي بعد وفاة زوجها. فهي بلا عمل، وتعيش بعيداً عن والديها، وليس لها من مورد سوى الراتب التقاعدي البسيط الّذي تركه جواد لابنتيه وقدره ستة وعشرون ديناراً. أما مكافأته عن نصب الحرية فلم تتجاوز الثلاثة آلاف دينار.

هنا، ارتأى رفعة الجادرجي أن ذلك المبلغ لا يتناسب والعمل المضني الّذي أنجزه جواد، فاقترح أن يحاول الحصول على مبلغ إضافي يدفع للورنا مقابل إشرافها على استكمال تعليق المنحوتات في أماكنها المناسبة على الجدار، باعتبارها رافقت زوجها في كلّ مراحل هذا العمل، وباعتبارها هي نفسها فنانة في الأساس.

وفعلاً، رسمت لورنا التصميم الّذي جرى تعليق قطع البرونز استناداً إليه، وكانت تذهب يومياً إلى موقع العمل إلى أن أخذ النصب شكله النهائي، وصار جاهزاً للتدشين. وقد صرفت لها في آخر الأمر ثلاثة آلاف دينار إضافية، كان لها أثرها في مساعدتها في المأزق الّذي كانت فيه.

تقول لورنا: «لم أفكر بترك العراق بعد وفاة جواد لأن زوجي كان عَلَماً في بلده، وأردت لابنتيه أن تكونا فخورتين بأبيهما، وأن تعرفا أي فنان كبير كان. ولو أخذتهما وهما في تلك السن الصغيرة وعدت إلى بريطانيا فقد لا تعرفان عنه شيئاً».

وقف أصدقاء مخلصون إلى جانب لورنا في تلك الفترة العصيبة من حياتها، بينهم لمعان البكري وزوجها محمد عبد الوهاب. وقد اقترحت لمعان على لورنا أن تكتب رسالة إلى عبد الكريم قاسم تقول له فيها إن جواداً قد ضحّى بنفسه وهو ينجز هذا الصرح الفني الوطني، وإنّها لا تنوي مغادرة العراق بل تريد تنشئة ابنتي جواد سليم، زينب ومريم، في وطن أبيهما.

كان الأمل من تلك الرسالة أن الزعيم عبد الكريم قاسم سيأمر، حال قراءتها، بقطعة أرض تبني عليها لورنا بيتاً لها ولابنتيها، وتستقر في بغداد كما تحب. وهي قد كتبت الرسالة وراحت تنتظر الجواب الّذي سيحدّد

مصيرها، وقد جاء الجواب هاتفياً كالتالي: وصلت رسالتك إلى سيادته وأسعدته رغبتك في البقاء في العراق، لذلك أمر بإعطائك الجنسية العراقية.

ولأنها كانت قد أخذت صوراً للمنحوتات بعد إنجازها في إيطاليا، فقد رغبت في أن تطلع الزعيم عليها قبل إزاحة الستار عن النصب، وذهبت فعلاً إلى وزارة الدفاع، حسب موعد مسبق، وانتظرت طويلاً، ثم جاء أحد الضباط ليقول لها إن الزعيم مشغول ولا يستطيع مقابلتها، وأخذ منها الصور ليريها له، ولم يعدها إليها.

سافرت لورنا ذلك الصيف لقضاء إجازتها في بريطانيا مع ابنتيها، ولم تحضر حفل إزاحة الستار عن نصب الحرية في تموز ١٩٦١، إذ كان احتفالاً رسمياً كل الحضور فيه من الرجال. وهي لا تذكر أنها تلقت دعوة للحضور.

بعد عودتها من الإجازة، كان أول ما فعلته أنها ذهبت لرؤية النصب، وشعرت أنه ليس عظيماً فحسب، بل هو متعة للنظر ومحرك للروح. وفي تلك اللحظات الراعشة الَّتي كانت تقف فيها مثل كائن ضئيل أمام ذلك الصرح العالي، تذكّرت ما قاله الفنانون الإيطاليون الَّذين أُتيحت لهم رؤية المنحوتات أثناء صبها في فلورنسا. لقد قالوا لجواد إنه فنان محظوظ لحصوله على فرصة إنجاز نصب بهذه الضخامة، وحتى في أوروبا، يندر أن تمنح دولة من الدول أحد فنانيها فرصة كهذه.

هل جاء النصب تتويجاً لإبداع جواد سليم؟ تعلن لورنا بصوت خافت أنها تحب نصب الحرية كثيراً، لكنها لا تعتبره أفضل أعمال زوجها. فالعمل الأقرب إلى قلبها هو منحوتة «الأسطة البنّاء» الَّتي اقتناها متحف الموصل، ثمّ انتقلت فيما بعد إلى متحف الرواد في بغداد.

بدأت لورنا تدرك معنى أن تبقى وحيدة بدون جواد، مع كل ما يعنيه ذلك من أعباء، لكنها كانت قد فرحت بحصولها على الجنسية العراقية، إذ أتاحت لها أن تلتحق بهيئة التدريس في كلية البنات كموظفة عراقية، لا أجنبية متعاقدة.

وعندما اتجهت النية لإغلاق كلية البنات أواسط الستينات انتقلت، بمساعدة من محمد مكية، إلى تدريس الرسم في كلية الهندسة، وبقيت فيها ستّ سنوات.

الأمر الوحيد الَّذي كان يُحبطها هو أنها لم تتعلم العربية على أصولها، وكانت تكرر أن تلك غلطة جواد، إذ كان يفضل أن يُحادثها بالإنكليزية في البيت لكي يساعد ابنتيه على إتقان هذه اللغة، ما دامتا تتعلمان العربية في المدرسة.

اضطرت لورنا إلى تعلم لغة زوجها بعد وفاته، مثلما حصلت على جنسيته بعد وفاته أيضاً. كانت تستطيع تدبير أمورها في

facebook.com/the.books

السوق، وتتحدث مع أم جواد عن الطبخ وأحوال الطقس وحاجيات البيت، لكنها لم تتمكن يوماً من الدخول في نقاش سياسي باللغة العربية، في وقت كان كل العراقيين فيه يتجادلون في السياسة.

وهكذا، صار لزاماً عليها أن تعود إلى دراسة العربية قراءة وكتابة، بحيث تستطيع أن تقرأ لافتات الوزارات وأسماء الدوائر والمصالح المختلفة، إذ كان عليها أن تلاحق معاملة تقاعد جواد، وأن تجهد في حل مشكلة عالقة بسبب سلفة على الراتب كان قد أخذها من معهد الفنون قبل وفاته، واستغرق حلها سنتين!

ثم إن وظيفة لورنا الجديدة كمدرسة في كلية البنات كانت تستوجب منها أن تعرف أجزاء الجسم، على الأقل، بالعربية، كاليد والذراع والمرفق والركبة. وقد تعلمت كل ذلك، لكنها عجزت عن إتقان قواعد اللغة، وبدون القواعد لا يمكن تكوين جملة صحيحة، لكن الأوان كان قد فات.

في بداية عملها، كانت هناك مترجمة تأتي إلى الصف لتساعدها في التفاهم مع الطالبات. ثمّ أخذت تتدبر أمورها بنفسها، إذ لم يكن مطلوباً منها أن تتكلم كثيراً، بل أن تعرف الكلمات الأساسية والضرورية للمادّة الّتي تقوم بتدريسها. وعلى رغم الجهد الّذي كانت تبذله، فإنها كثيراً ما وقعت في مطبات لغوية جعلت منها أضحوكة للطالبات، خصوصاً عندما كانت تشير إلى الرقبة وتقول ركبة، أو تؤنّث المذكر وتذكر المؤنث.

لورنا مع طالباتها في كلية البنات (الملكة عالية)، ١٩٦١.

ومن بين طالباتها في كلية البنات تذكر لورنا الطالبة سعاد العطار.

كانت سعاد قد تزوجت صغيرة وسافرت مع زوجها إلى أميركا حيث درست الرسم في أحد المعاهد، وعندما عادت إلى بغداد لم يعترفوا بشهادة المعهد الّذي درست فيه، فالتحقت بكلية البنات لدراسة الرسم من جديد. وحالما رأت لورنا رسومَ سعاد، أدركت أنها أمام فنانة بالفطرة، ولا تحتاج إلى محاضرات حول كيفية مزج الألوان وغير ذلك من مبادىء أولية، فقالت لها إنّها معفاة من حضور الدروس، وستعطيها الدرجة في آخر السنة على رسومها.

شغل العمل في التدريس لورنا، لكنه لم يملأ كل وقتها. لقد ترك جواد فراغاً هائلاً في حياتها، مثل الصمت الّذي يعقب انفضاض عرس صاخب دام عدّة أيام.

بعد عودتها من الكلية ظهر كل يوم، كانت تدور وسط جدران بيتها وهي تفكر في ما آل إليه وضعها. كما أصابها الأرق، وكانت تجد صعوبة في النوم كل ليلة، فتتحايل عليه أحياناً باحتساء العرق لكي تنام.

ولم ينقذها من الوحدة والفراغ سوى الرسم، بشكل جديد ومختلف عما كانت تفعله من قبل، إذ بدأت ترسم بغداد بكل ألوانها الترابية وبيوتها القديمة وشناشيلها الآيلة للتآكل. ومنذ تلك اللحظة، ارتبط مصير الفنانة بالمدينة. وصارت إحداهما تقيم داخل الأخرى.

لورنا وبيوت بغداد

هذه المدينة الأليفة والعريقة كانت قد بدأت تنفض عنها رداء القدم وتخضع للتجديد وللتوسع. وقد شهدت تلك الفترة هدماً لمناطق كثيرة، وشقّاً لطرقات واسعة جديدة في قلب المدينة، أبرزها الشارع الّذي صار اسمه شارع الجمهورية.

راحت لورنا تعمل عكس الزمن، لكي ترسم تلك البيوت التراثية والأحياء القديمة قبل أن تدركها الجرّافات والمعاول، مدفوعة بإحساس جارف بأن بغدادها ستضيع منها إن لم تسجلها في لوحاتها ... ستضيع كما ضاع جواد.

كل يوم، كانت لورنا تأخذ أوراقها وتتوجه لتجلس أمام المباني الّتي يجري هدمها لشق شارع الجمهورية، فترسم كل ما تقع عليه العين. وبسبب أعمال الهدم، انفتحت أمام الفنانة الأزقة الضيقة ذات البيوت المتراصة جداراً إلى جدار. وقد كان من المستحيل الحصول على فسحة بصرية لرسم تلك البيوت، في السابق، بسبب ضيق الأزقة ومحدودية مجال الرؤية.

نصح المعماري محمد مكية لورنا بالاهتمام بالتفاصيل، وكان يحثها على ذلك، لأنه لم يكن يهتم بالمشهد البانورامي للبيوت الّتي ترسمها، قدر اهتمامه بالتفاصيل الصغيرة وعنايته بزخارف الأبواب والشبابيك والعقد والواجهات.

وتعرب لورنا اليوم عن أسفها لأنها لم تلتقط صوراً لتلك الأماكن. ففي حينه كانت تنقل ما تراه رؤية العين، وتكره النقل عن صورة فوتوغرافية. كان الرسم المباشر والآني مهمّاً في نظرها، ولم تحسب حساب المستقبل، والحاجة إلى استعادة تلك المشاهد المنقرضة.

عندما كانت تذهب لترسم البيوت المتداعية، كان أطفال المحلة يتجمعون حولها ويطرحون السؤال البريء المعتاد: ماذا تفعلين؟

الجواب : أرسم هذه البيوت.

ومن بين الأعين الكثيرة الفضولية كان يبرز من يقول لها بحكمة تفوق سنّه: لماذا ترسمين هذه البيوت العتيقة الوسخة وهناك بنايات حلوة وجديدة في الجانب الآخر من الشارع؟

ولأن أولئك الشهود الصغار لم يكونوا يدركون تماماً طبيعة عملها، فإنهم كثيراً ما كانوا يقفون بقاماتهم النحيلة أمامها مباشرة، بينها وبين المنظر الّذي تود رؤيته. لكنهم لم يزعجوها أبداً.

مرة وحيدة، في الكرخ، جاء شاب وبدأ يحاول تنفيس دواليب سيارتها، وكانت قد باعت الفيات الّتي دهمت فيها الأزمة قلب جواد، واشترت بدلاً منها سيارة موسكوفيتش. وحالما لمحت ما حاول الشاب أن يفعله، قفزت إلى السيارة وأدارت المحرك هاربة.

لا تذكر لورنا أن أحداً من الناس العاديين حاول أن يعيقها عن عملها. لكن شرطياً ضايقها عندما كانت ترسم ذات يوم، قرب السراي، شارعاً كان يسمى شارع الثانوية.

وقف الشرطي وراءها وهي ترسم البيوت الوادعة المستريحة على كتف دجلة، ثم قال لها بلهجة آمرة : ممنوع!

حاولت أن تتفاهم معه قائلة إنّها ترسم البيوت القديمة لأنها جزء من تاريخ المدينة، ولا تفهم ما المانع من ذلك. لكنه أصر على موقفه، فاضطرت إلى لملمة أوراقها وأدوات عملها والانسحاب عائدة إلى الكلية. وعندما روت لزملائها ما دار بينها وبين الشرطي، قالوا لها إن الشرطي كان على حق، لأن وزارة الدفاع تقع على شمرة عصا من المكان الّذي كانت ترسمه، وهو كان يستطيع أن يقتادها إلى مركز الشرطة ويدخلها في مشكلة حقيقية.

مرة أخرى، وكانت ترسم بيوت السنك[*]، جاءها عسكري كان يمر بالمكان وسألها السؤال الّذي حفظته عن ظهر قلب: ماذا تفعلين؟

الجواب : أرسم البيوت القديمة.

صاح العسكري مستنكراً : شنو؟

وتدخّل عجوز يمتلك دكاناً قريباً وتوسّط بينها وبين العسكري، شارحاً له أن هذه الحرمة فنانة أجنبية وأنها، خلف اللّه عليها، ترسم البيوت القديمة لأنها ذات قيمة تاريخية للأجيال المقبلة.

يومها، شعرت لورنا بالحبّ والامتنان لذلك الرجل البغدادي البسيط الّذي فهم، بالفطرة، ما كانت «الحرمة الإنكليزية» تقوم به، ودافع عنها أمام العسكري. أمّا هذا الأخير، فعندما لم يجد ما يعترض عليه، سألها: كيف جئت إلى هنا؟

أجابت: بسيارتي.

وأشارت إلى الموسكوفيتش الّتي كانت تربض تحت الشمس غير بعيدة عنهما. فذهب إلى السيارة وتأكد من رقمها المحلي، ثمّ ترك لورنا لشأنها وذهب كما جاء. ولعله ظنها معتوهة إذ ترسم تلك الخرائب، أو إنكليزية حائرة بزمانها، أو ربما جاسوسة!

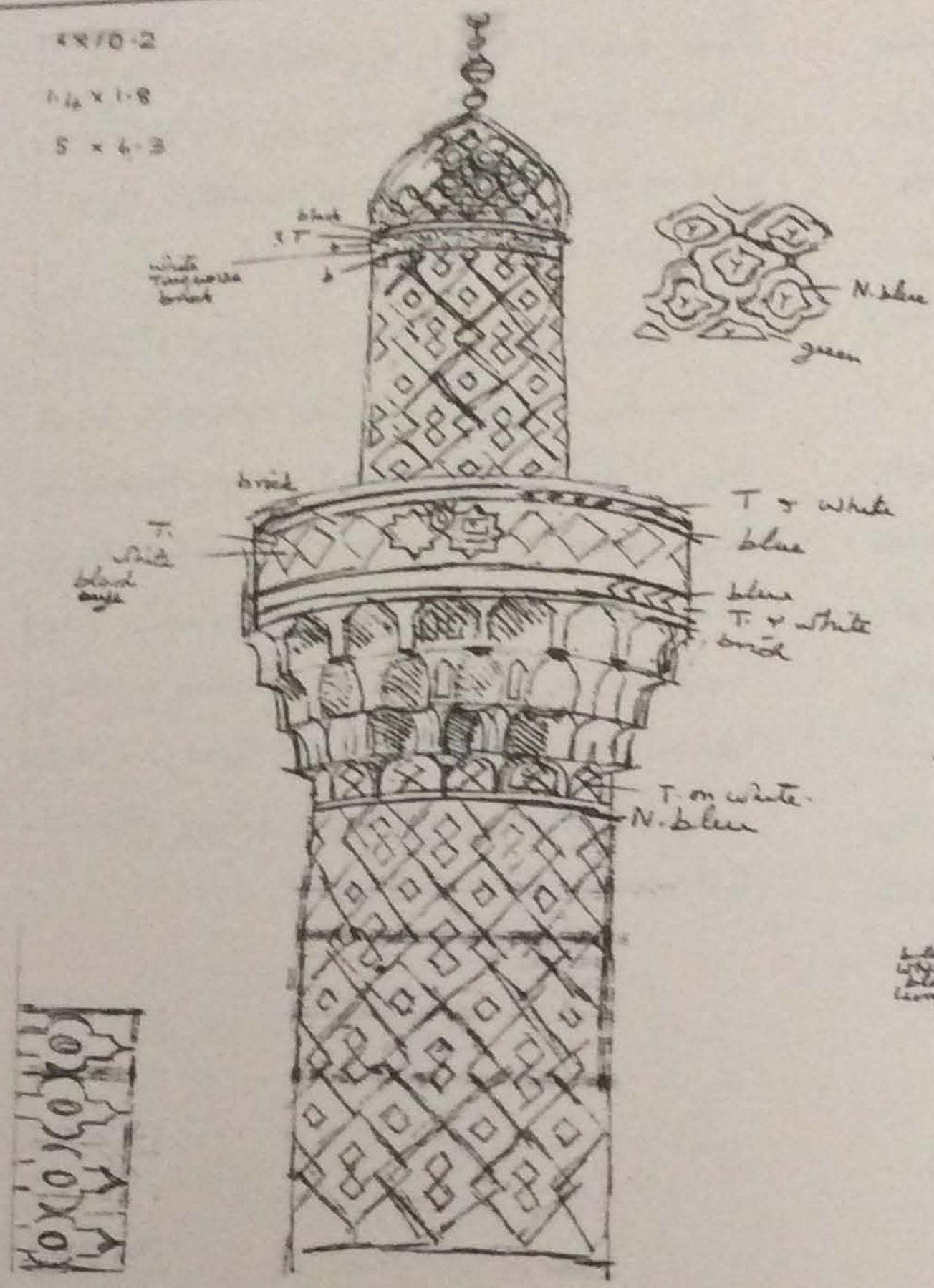

تخطيطة مئذنة بريشة لورنا.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

لم تأخذ لورنا صوراً لأغلب تلك اللوحات، فقد كان هناك دائماً من ينتظر انتهاءها منها ليقتنيها على الفور. وأحياناً، كان الشاري يأخذ اللوحة والزيت لا يزال ندياً عليها، ويفرح بها مثل الخبز الحار.

رسمت لورنا كل لوحاتها لبيوت بغداد القديمة باللون البني ودرجاته. كانت تلك الطريقة الوحيدة، في رأيها، لإنجاز موضوعها. ولعلّها كانت متأثرة بلوحات كانيليتي وألوانها البنية والذهبية الصفراء، وأحبت أساليب الرسامين القدماء وحفظتها في مخيلتها، مثل أساليب أولئك الأوروبيين الّذين قصدوا الشرق في القرن التاسع عشر وأنجزوا لوحات مائية تميل إلى ألوان الأرض والصحراء، تشبه في ألوانها البطاقات البريدية الّتي تقادم عليها الزمن.

عادت الخصوبة إلى حياتها، وأنقذها الرسم من الفراغ والوحشة، فواصلت التردد على الأماكن الّتي تناديها، لتنجز التخطيط على الطبيعة، ثم تعود إلى البيت وتبدأ تلوين المنظر بلون واحد، يدكن أو يشفّ، مثل ثمرة تمر في تحولاتها إلى النضوج. ففي بغداد، عندما تهب عاصفة الرمل، ترتدي البيوت والشوارع والأشجار والنهر والسماء لوناً واحداً، هو لون الطين!

(*) السنك: منطقة في بغداد.

الزواج الثاني

في العام ١٩٦٧، بعد ست سنوات على غياب جواد، (هل غاب حقاً؟)، تزوجت لورنا مجدداً من محامٍ عراقي كان قد تولى قضية إرث ابنتيها. فقد كان من الصعب البقاء مع البنتين بدون رجل، خصوصاً وأن اللّه لم يرزقها ولداً. لكن الزيجة الجديدة تعثرت ولم تعمر طويلاً، فقد كان كل من الزوجين يريد من الحياة شيئاً مختلفاً عما يريده الثاني، حسب تعبير لورنا نفسها.

وبرغم قصر عمر هذا الزواج، فقد أثمر طفلة حملت اسم ريا، انضمت إلى أختيها زينب ومريم.

وريا هذه، تحمل اليوم اسم سليم أيضاً، لا اسم والدها الحقيقي. والسبب أن لورنا أرادت بعد الولادة أن تزور أهلها في بريطانيا، وحالت ظروف خاصة دون إنجاز جواز سفر مستقلّ للطفلة، فأضيفت إلى جواز سفر والدتها الّذي يحمل اسم لورنا سليم، وصار اسمها ريا سليم.

بقيت لورنا تقيم في البيت الّذي كان جواد قد استأجره في الصليخ قبل رحيله، وظلت هناك لحين دخول زينب المدرسة الثانوية. ثم أخبرها زوجها الثاني بأن هناك عرصات تباع في حي المنصور بسعر معقول، وارتأى أن يشتري بيتاً يُسجّل باسم زينب ومريم من الإرث البسيط الّذي تركه لهما أبوهما. أما لورنا، فلم ترث زوجها لأنها غير مسلمة.

وبعد ولادة ريا، اشترى أبوها بيتاً آخر قريباً من بيت المنصور، انتقلت الأسرة كلها للسكن فيه أواخر الستينات.

خلال ذلك، تعلمت البنات العربية جيداً، وحصلت زينب على معدل عال جداً في امتحان شهادة البكالوريا، وكانت علامتها في العربية ممتازة. أما مريم، فقد عاشت وضعاً دراسياً أصعب لأنها كانت في الرابعة من عمرها عندما فقدت أباها، وفي الرابعة عشرة عندما أخذتها أمها من بغداد وسافرت لتقيم في بريطانيا.

سبقت زينب الجميع إلى بريطانيا، إذ سافرت بعد إنهائها الثانوية للدراسة في جامعة لندن ثم في كمبريدج. وقد بدأت

facebook.com/the.bbooks

بدراسة علم الميكروبات، ثم غيرت دراستها إلى الفيزياء، ونالت الدكتوراه، ثم صارت أستاذة جامعية وقامت في الوقت ذاته بأبحاث حول عمل الدماغ. وقد تزوجت زينب من فيزيائي نيوزيلندي وأنجبا ولدين ويعيشان اليوم في ليدز.

اتخذت لورنا قرار العودة إلى بريطانيا في العام ١٩٧١، بعد فشل زواجها الثاني. لقد سافر زوجها إلى ڤيينا لإجراء جراحة في العين ولم يَكْتُب لها طوال سنة. ظنّت أن حالة عينه لا تسمح له بالكتابة، وانتحلت له الأعذار، إلى أن جاءها البستاني ٱلَّذي يعتني بحديقتها، ذات يوم، وقال لها إنّه تلقّى من زوجها رسالة يطلب منه فيها أن يخبرها بكذا وكذا. وتساءلت : إذا كان قادراً على مراسلة البستاني، فلماذا لا يراسل زوجته؟

فكرت أن والديها قد تقدّما في السن ويعانيان من أمراض الشيخوخة، وليس لهما ابنة غيرها، ورأت أن من الأفضل لها أن تنتقل للعيش إلى جوارهما.

بدأت لورنا تستعد لمفارقة بغداد بعد انتهاء السنة الدراسية، ولم يكن الأمر سهلاً لمن عاش هناك حوالى العشرين عاماً، وأمضى في بغداد أكثر سنوات العمر وهجاً، وارتبط معها بحبل الفن السري. ثم إن أُم جواد كانت قد فارقت الدنيا، وهذه نقطة مهمة في قرار لورنا، إذ تؤكد أنها لو كانت على قيد الحياة لما تركتها وسافرت. «كانت بيبي هي كل أهلي في بغداد، ولم يكن أحد سواها في العائلة يهتمّ بأمري كثيراً».

ها هي تعود إلى شفيلد، مسقط رأسها، تعمل في التدريس على رغم الودّ المفقود بينها وبين هذه المهنة الشاقة. لقد ظنت أن حياتها كرسّامة قد ولت إلى غير رجعة، فهي لا تميل إلى الألوان الرمادية ٱلَّتي تحيط بها هنا، ولا تشعر بالرغبة في رسمها. كيف يرسم الضباب من اعتاد أن يتدفأ بحرارة شمس بغداد في اللوحة؟

ومرة أخرى، أوشك الفراغ أن يطبق على روحها. لقد اكتشفت أنها لا تطيق العيش بدون أن ترسم. إنّه شيء تحتاجه ويعينها على المضي في الحياة والحركة والضحك والكلام.

وهكذا، في يوم قاتم وماطر، في حي هادىء من أحياء شفيلد، امتدت يد لورنا لتخرج واحداً من تخطيطاتها البغدادية بالقلم الرصاص، وراحت ترسم من جديد وتلون وتعيد انتسابها إلى دنيا البشر المبدعين.

هي نفسها لا تدري كيف عرف أحد العراقيين أنها عادت إلى الرسم، ولعلّ مكّية أخبره بذلك، فذهب يزورها في شفيلد ويشتري منها اللوحة ٱلَّتي كانت قد انتهت منها، ثم عاد وكتب مقالاً في صحيفة عراقية مفاده أن لورنا سليم ما زالت حية... ترسم!

في إحدى زياراتها إلى لندن، خطر لها أن تذهب لرؤية سليد سكول، المكان ٱلَّذي شهد لقاءها بجواد. وقد وجدت أن المبنى

ما زال رابضاً في موقعه في بلومزبوري، فدارت في الأرجاء، وشاهدت معرض الطلبة الخريجين الّذي كان مقاماً آنذاك، وبدا لها أن الجو قد اختلف عمّا كان عليه في أيامها، وأن الأساليب الفنية للطلبة الجدد قد تجاوزت الحداثة. وهناك أعمال بالڤيديو يعتبرونها أحداثاً. وهذه الأحداث المزعومة تحتل كلّ القاعات الّتي أخليت من أثاثها للمناسبة. وخرجت لورنا من سليد سكول دون أن يخالجها شعور بأنها في المدرسة الّتي كانت تعرفها.

وكما عادت تتشمم رائحة الماضي في سليد، عادت ذات يوم من أيام ١٩٨٦ لتزور بغداد، بعد أن غابت عنها خمسة عشر عاماً.

لقد جاءت تلبي دعوة وجهت إليها لحضور مهرجان فني. كانت متوترة قبل السفر وتخشى أن تمنع من مغادرة العراق بسبب جنسيتها العراقية، فقد كان السفر ممنوعاً بسبب الحرب مع إيران. لكنها سافرت أخيراً بجوازها البريطاني وسارت الأمور على ما يرام.

وجدت بغداد لا تشبه بغداد الّتي تركتها. طرقات جديدة كثيرة تمتد فوقها جسور سريعة وتخترقها أنفاق حديثة وتتوزع على جانبيها عمارات لم تكن قائمة من قبل.

ذهبت تتجول سيراً على الأقدام بحثاً عن بيوتها القديمة والأقل قدماً، فلم تجدها، كان من الصعب أن تهتدي إليها، والوقت ضيق، والمنهاج مزدحم.

سعت أيضاً لزيارة أفراد العائلة، فذهبت لرؤية زوجة نزار، شقيق جواد، وكان نزار قد فارق الحياة. كما رأت نزيهة الّتي كانت حاضرة باستمرار مع الفنانين المدعوّين إلى المهرجان، والتقت بعدد من الأصدقاء القدماء مثل فريد الله ويردي وهنري زفبودا. أما البقية، فقد غادر أغلبهم العراق، وقسم منهم استقر في لندن.

ارتاحت لورنا لتلك الزيارة، ولم يخب ظنها في شيء، غير أن كلّ شيء كان غريباً عليها. حتى شارع حيفا الّذي استهجنه الآخرون وانتقدوا أسلوبه المعماري، وجدته هي مثيراً للاهتمام، على رغم اللون الرمادي الطاغي على عماراته. لقد رأت أن الأقواس المفتوحة والباحات الخارجية مناسبة تماماً لبلد حار مثل العراق، وتسمح للأطفال باللهو في أماكن آمنة.

تضمن منهاج الزيارة جولة في مركز صدام للفنون. وهناك وجدت لورنا نفسها في المدخل أمام جدارية جواد «الأسطة البنّاء» الّتي كانت تفضلها على كل أعماله. ويبدو أنها كانت قد نقلت إلى المركز حديثاً ولم يتقرر مكان وضعها بعد.

عادت مريم لزيارة بغداد أيضاً عندما بلغت الثامنة عشرة من عمرها وصار لزاماً رفع وصاية والدتها عنها وإنجاز الأوراق

الضرورية لذلك. وقد أقامت في بيت عمها نزار والتقت بكل أبناء العم وكانت سعيدة إلى حدّ فكرت معه بالعودة للعيش نهائياً في العراق. لكنها تزوجت فيما بعد وأنجبت ثلاثة أطفال، وصرفت النظر عن فكرة العودة.

أما زينب، فلم تذهب إلى بغداد لأنها أرادت أن تسدل ستاراً صفيقاً سميكاً على حياتها السابقة. لقد أصابتها وفاة أبيها بصدمة قوية، ولم تحاول أمها أن تكذب عليها أو أن تؤجل وقع الخبر. لقد رأت أمها تعود وحيدة من المستشفى بعد أن غابت عن البيت أياماً، فسألتها : متى يعود أبي؟ أجابت الأم بهدوء: إنه لن يعود.

هبَّ الّذين كانوا حول لورنا وقالوا لها إنها أخطأت في صراحتها القاسية مع الطفلة، وكان من الأنسب أن تقول للطفلة إن أباها غائب في سفر سيطول. أما لورنا فقد وجدت أن الكذب أسوأ.

بكت زينب طويلاً بعد سماعها النبأ، ثم مسحت دموعها مرة واحدة وأخيرة، ولم تعد إلى الموضوع ثانية. لكن شخصيتها تبدلت منذ ذلك اليوم. كانت طفلة لاهية وسعيدة وصارت فجأة هادئة ومتحفظة.

أحياناً تقول زينب لوالدتها إنها تريد الذهاب إلى العراق لترى ماذا حلّ بالبلد. ولا أحد يدري إن كانت ستنفذ الفكرة. ولعلها تريد اليوم أن تعود لتتلمس ذكرى أبيها الّذي تتذكره جيداً، إذ كانت في حوالى العاشرة عندما غاب.

أما مريم فتقول إنها ليست متأكدة إن كانت تتذكّر أباها أو هي تظن ذلك بسبب وجود صور كثيرة له.

وعندما كانت مريم في المدرسة الثانوية في شفيلد، كان على التلاميذ كتابة تقرير عن فنان أوروبي. وقد اختارت مريم أن تكتب عن أبيها، وأصرّت على ذلك على رغم احتجاج المعلمة بأنه غير أوروبي. وفي آخر الأمر كتبوا إلى دائرة التعليم في المدينة، وحصلوا لمزيم على إذن خاص، فكتبت بحثاً مطولاً ومدعماً بالصور، ركزت فيه على دراسة جواد سليم في أوروبا وتأثير الفنانين الأوروبيين عليه.

أما ريا، فقد ظلت تعاني من مشكلة اسم الأب. فعندما جاءت إلى بريطانيا، لأول مرة، لم تكن تملك جواز سفر خاصاً بها. بل كانت مسجلة في جواز والدتها . ولما انتهت صلاحية الجواز بعد سنة، قامت لورنا بتجديده في القنصلية العراقية في لندن، لكن الموظف رفض إضافة ريا إلى الجواز الجديد لأن أباها على قيد الحياة ولا بدّ من الحصول على موافقته. وهكذا بقيت ريا بدون هوية، فذهبت أمها إلى مركز الشرطة في شفيلد وسألتهم ماذا تفعل، فالبنت في الثالثة من عمرها، وليس هناك أيّة وثيقة رسمية لها. فكان أن حصلت من الشرطة على ورقة تجيز

بقاء الطفلة في بريطانيا. ولما حان وقت إدخال ريا إلى المدرسة، جاء مسؤول التأمين الصحي وسأل لورنا : من أين جئت بهذه البنت؟ إنها غير مسجلة في أيّ سجل رسمي ... ولعلّه ظن أن أمها قد سرقتها من أسرة ثانية.

حصلت مريم على الجنسية البريطانية بسهولة لأنها كانت دون الثامنة عشرة عندما انتقلت مع أمها إلى بريطانيا. وقد اقترح المسؤول عن التجنيس أن تتقدم لورنا بطلب الجنسية لريا أيضاً. ولما قالت له إنها ليست من الأب ذاته، نصحها بالانتظار سنتين ثم التقدم بالطلب. وهكذا كان، وحصلت ريا على الجنسية البريطانية.

خلال تلك الفترة، جاء أبو ريا لزيارتها في لندن، وتولّى تصحيح اسمها ونقلها إلى اسمه بحيث يستطيع أن يفتح لها ملفاً في دائرة البعثات في العراق ويحوّل لها نفقات دراستها. لكن الأمور عادت وتعقدت بعد صدور قرار يمنع استعمال الألقاب في العراق، والاكتفاء بالاسم الثلاثي. وجاء ذلك في الوقت الّذي كانت ريا تستعدّ فيه لاستخراج شهادة إنهائها الثانوية، فقررت من تلقاء نفسها استعادة اسم سليم لأنه أسهل وأقصر من اسمي أبيها وجدها.

عندما كتبت لورنا وصيتها، سجلت اسم ابنتها الثالثة هكذا: ريا علي السعيد المعروفة بريا سليم، وكتبت لها مبلغاً من المال على سبيل الإرث. أمّا مريم، فقد أوصت لها بحصّتها من البيت المشترك الّذي تقيمان فيه حالياً، وهو بيت اشترته لورنا مناصفة مع مريم وزوجها عندما انتقلت لتعيش في ويلز، حيث يعمل زوج مريم.

بقيت زينب وقد قالت لأُمها إنها ليست بحاجة إلى مال أو عقار، فقررت لورنا أن تعطيها اللوحة الّتي رسمها لها جواد في لندن، لوحة لورنا، وكذلك لوحة من عمل جدها الحاج محمد سليم. إنّ هاتين اللوحتين هما إرثها الّذي تعتز به، إذ كانت حريصة دائماً على أن تحتفظ بشيء من إبداع أبيها.

والحقيقة أن لورنا عندما غادرت بغداد، قيل في الأوساط الفنية في بغداد إنّها أخذت معها أعمال ومخلفات جواد سليم ونقلتها إلى بريطانيا.

أما هي، فتردّ بأن كل لوحات زوجها، تقريباً، قد بيعت في حياته، ولم يتبقَّ لها سوى لوحة لورنا ولوحة ثانية كان قد عرضها في أميركا في العام ١٩٥٤، وعدد من التخطيطات.

اللوحة الأولى وهبتها لابنتها زينب، واحتفظت لنفسها باللوحة الثانية الّتي هي كل ما تبقى لها اليوم من أعمال زوجها. أما التخطيطات، فقد اشترت وزارة الإعلام العراقية، فيما بعد، بواسطة ضياء العزاوي، حوالى الخمسة والعشرين منها لوضعها في متحف الفنانين العراقيين الروّاد، إلى جانب

facebook.com/the.books

أعمال عبد القادر الرسام وفائق حسن وآخرين.

اشترت الوزارة أيضاً لوحة لمدينة الكوفة، ونموذجاً كان جواد قد أنجزه ليوضع في ميدان سباق الخيل، ويمثل حصاناً عربياً، وكذلك النموذج الخشبي لتمثال الأُم والطفل. وعرفت لورنا فيما بعد أن الطفل، الّذي يشبه البيضة، قد ضاع من التمثال ووضعوا غيره محله.

كانت لدى لورنا لوحة ثالثة لجواد هي «ألعاب الأطفال»، وقد أعطتها إلى نزار سليم قبل مغادرتها العراق، لأنه أراد أن يحتفظ بشيء من عمل أخيه.

وبهدف إقامة معرض صغير لجواد سليم، أعطت لورنا إلى الجهات الفنية العراقية كلّ محتويات المشغل الّذي كان زوجها ينحت فيه أعماله فيه، وإزميله، وأحد غيتاراته، وحاملة النوتة الجميلة الخاصة به، وأثاث غرفته. لكن كلّ ذلك وضع في غرفة مقفلة.

وعندما زارت لورنا بغداد في العام ١٩٨٦، تمنّت لو ترى تلك الحاجيات الحميمة الّتي تعود لجواد سليم معروضة أمام الناس والجيل الجديد من الفنانين الّذين سمعوا عن جواد دون أن يعرفوه.

تقول: «أعرف أن العراقيين يظنون أنني أحتفظ لنفسي بكلّ لوحات جواد البغدادية الجميلة، لكنهم لا يعرفون أنها كانت تباع حال الانتهاء منها».

حتى الرّسمان المائيان اللذان تركهما جواد غير مكتملين عند وفاته، أخذهما الأصدقاء، مثلما اختفت من مكتبه في معهد الفنون، غداة رحيله، لوحة بيعت فيما بعد إلى أحد جامعي أعماله.

في الريف

في بيت ريفي صغير تتقاسمه مع أسرة ابنتها مريم، وسط هضاب لانوثر في مقاطعة ويلز، تعيش لورنا سليم اليوم بعد أن شارفت على السبعين.

غرفتها محاطة بشبابيك زجاجية كبيرة من ثلاث جهات، تطل على واد أخضر مترام يلفّه الهدوء وتسرح فيه أغنام قلائل.

تنقسم الغرفة إلى مجالين حسني الترتيب. واحد يستعمل كمطبخ ومرسم ومكتب، والثاني يتصدره سرير خشبي للنوم، مغطى ببطانية قديمة من إنتاج مصنع فتاح باشا، بنية اللون ذات مربعات زرقاء، تشبه مثيلاتها الموجودة في بيوت بغداد خلال الستينات.

على الجدار الوحيد بضع لوحات مستنسخة بالألوان وبالحجم الطبيعي عن لوحات لجواد. إلى رفوف تزدحم بملفات منتظمة بعناية، تحوي قصاصات من جرائد وصوراً كثيرة عن جواد سليم.

ما أبعد بغداد عن هذا المكان ٱلّذي تتلاعب فيه الأمطار والرياح في جنوب غرب بريطانيا؟

مع هذا، كانت بغداد المشمسة حاضرة في لوحة لم تجف بعد، على الحامل الخشبي في الجانب الأيمن من الغرفة، بينما جلست لورنا وبين كفيها كوب من الشاي، في الجانب الأيسر، تتطلع عبر النافذة إلى الوادي الصامت، مستذكرة الرجل ٱلّذي غاب عنها قبل ستّة وثلاثين عاماً، لكنه ربطها به حتى آخر أنفاسها.

قالت، كمن يحدث نفسه، إنّ جواداً كان زوجاً عاطفياً، ناعماً، يشاكسها أحياناً بعبارات خشنة على سبيل المزاح، مثل أي ممثل بارع.

معاً، مرحا وضحكا كثيراً، وما زال صوته يرن في أذنها وكأنها تسمعه من الغرفة المجاورة، وتحفظ لكنته وهو يتحدث بالإنكليزية، لافظاً حروف الكلمات حرفاً حرفاً.

لا تذكر أنه غازلها غزلاً مباشراً. لكنها تحفظ ما تعتبره أجمل عبارة قالها عنها، وإن لم تسمعها منه. لقد كتب بالعربية في دفتر يومياته أن «لورنا هي أروع إنسانة في حياتي.

facebook.com/the.boobks

لقد ساندتني وكانت وفية». وعندما قرأ جبرا إبراهيم جبرا دفتر اليوميات بعد رحيل جواد، ترجم لها تلك العبارة، فبكت أسفاً لأنها لم تتعلم العربية لتقرأها بنفسها.

هو أيضاً ساندها وكان وفياً. لم يتركها تشعر يوماً بالقلق أو بالغيرة من امرأة أخرى. لقد رسم نساء حسناوات بينهن من كانت ذات شهرة ومكانة اجتماعية أو أدبية، لكن لورنا لم تَخْشَ منهن على زوجها، فقد كانت ترى، بعين الفنانة، أن أولئك النسوة كنّ جميلات بالفعل، ويطيب للفنان أن يرسمهن.

لقد رسم الشاعرة لميعة عباس عمارة، المعروفة بالموهبة والجاذبية، واحتفظ بصورتها عنده حتى مات. كما رسم رباح الركابي الّتي كانت معلمة في المدرسة الأميركية ببغداد، وتتميز بحسن لا تخطئه العين.

وكان علي حيدر الركابي، زوج رباح، مديراً آنذاك لنادي المنصور، وأراد دعوة فناني بغداد لإقامة معرض لرسومهم في النادي. لكن الفنانين رفضوا بدعوى أن ذلك النادي مكان برجوازي ولا يناسبهم!

لجأ الركابي إلى عرض العضوية في نادي المنصور على جواد وفائق حسن وفرج عبو، ولم يكن الفوز بعضوية هذا النادي الراقي ميسوراً يومذاك، فوافق الثلاثة وأصبحوا أعضاء فيه، وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يقيموا مع زملائهم معرضاً فيه في العام ١٩٥٦، خصوصاً بعد أن تكفلت الإدارة بطبع الملصق والدعوات.

رسم جواد أيضاً سيدات من معارف العائلة، من باب الامتنان والاعتراف بالجميل، مثل الدكتورة لمعان أمين زكي الّتي كانت طبيبة طفلتيه زينب ومريم، وكان زوجها الدكتور سالم الدملوجي طبيب العائلة، ولم يتقاضيا يوماً أجراً سوى دفء الصداقة.

مرت الوجوه الجميلة في لوحات جواد، وبرقت فيها الأعين السوداء الكحيلة، دون أن يقلق ذلك لورنا أو يدفعها إلى حصاره. وهي تقول إنها وثقت به لأنها كانت أكيدة من حبه لها ولابنتيه، ولم يكن يزعجها أن يخرج وحيداً للترويح عن نفسه، نافية احتمال أن يكون عاش مغامرات عاطفية خارج البيت. لقد كان في رأيها زوجاً مستقيماً، أدركت منذ لقائها الأول به في لندن أنها إزاء رجل يمكن الوثوق به، ولم يخب إحساسها.

إن السنوات العشر الّتي عاشتها إلى جواره في بغداد كانت من الفترات الذهبية، إذ أتيح لها أن ترى بلداً ينهض بقوة، مستنداً على حضارة عريقة، ناهلاً من موارد مائية غامرة وثروة نفطية هائلة، تخدم شعباً طيباً يسير بخطى حثيثة نحو مستقبل رخي.

تلك كانت حياة أخرى إذ تنظر إليها لورنا بمنظار حياتها اليوم، أو بمنظار ما آل إليه الوضع في العراق. وهي لا تملك إلّا أن تقارن، على رغم مرارة المقارنة.

في العام ١٩٥٠، عندما وصلت لورنا إلى بغداد، وجدت أن معظم أفراد الجالية البريطانية يسكنون في حيّ العلوية، غير بعيد عن النادي الفخم الّذي يحمل الاسم نفسه ويستقبلهم كل مساء مع نخبة محدودة من أهل البلد. وكانت هناك، في الحي نفسه، أسواق تحمل اسم سبينز يشتري الإنكليز منها علب الشاي ليبتون وعبوات الكورن فليكس وجبنة التشيدر وغير ذلك من حاجيات اعتادوا عليها في بلدهم.

رأت لورنا أن ذلك كان أشبه بالغيتو الإنكليزي وسط بغداد. وقد عاهدت نفسها ألّا تسكن في الغيتو، بل أرادت أن تتعرف على أهل البلد وأن تسكن حيث يسكن البغداديون.

وها هي الدنيا تدور، ويخرج الإنكليز من بغداد، وتشتعل ثورات وحروب، وتتوافد أعداد كبيرة من العراقيين على بريطانيا، يتجمع قسم كبير منهم في حي إيلينغ غرب لندن، حيث لهم أسواقهم (كما كانت للإنكليز في بغداد أسواقهم) الّتي يشترون منها البهارات والباميا وثوم العجم والنومي بصرة(*).

تحتفظ لورنا في بيتها اليوم بقليل من ثوم العجم، أعطاها إياه صديق عراقي فوضعته في كيس من البلاستيك، والكيس داخل كيس، ووضعت الكيس الثاني في زجاجة محكمة الإقفال، وما زالت الرائحة تفوح في مطبخها.

لقد تعلّمت من صديقتها مرغريت، زوجة محمد مكية، كيف تكبس الطرشي(**)، وكيف تدسّ فيه قطعتين أو ثلاثاً من ثوم العجم، ليكتسب نكهته المضبوطة.

خلّفت لورنا وراءها في بغداد ذكريات طيبة، وراودتها أحياناً فكرة العودة إلى العراق، لكنها لا تظن اليوم أنها قادرة على ذلك لأن بغداد لم تعد كما كانت «وأنا نفسي - على حد قولها - لم أعد كما كنت».

هي اليوم إنسانة أخرى، أكبر سنّاً وأعمق تجارب، وتقول إنها قد اشتغلت طيلة حياتها مثل المكوك، ولا تريد أن تبدأ من جديد. إنها سعيدة بحياتها الحالية في أرياف ويلز، وتشعر بالرضى لأنها تستطيع أخيراً أن تتفرغ لإنجاز أعمالها الخاصة، وهي كثيرة ومتراكمة.

إنها تريد أن تطبع دليلاً مصوّراً لأعمال جواد، وآخر لأعمالها، وأن تنظم الصور القديمة الّتي بحوزتها، وأن تكتب على كلّ صورة أسماء الأشخاص والأماكن والتواريخ، فإذا لم تفعل هي ذلك ... من سيفعله؟

تعرف لورنا أيضاً أن العراق سيعود رخياً كما كان، لكنها تخشى ألّا تمتدّ بها سنوات العمر لتشهد ذلك. وهناك من يقول لها إن جواداً قد مات في الوقت المناسب، بعد أن أنجز أعظم أعماله، (نصب الحرية)، ودخل في فضاء الأسطورة.

أما هي فليست من هذا الرأي. إذ كم

تتمنّى لو عاش زوجها عشر سنوات إضافية ليتمكن من إنجاز مشروعه الفني الّذي هجس به منذ بداياته. فجواد سليم لم يكن فناناً عادياً، بل صاحب مشروع أصيل ومهمّ، لكنه انطفأ في أول صعوده، وكانت شهرته على وشك أن تتفتح خارج بلاده، ولو امتد به العمر لقدّم أعمالاً مذهلة.

مع هذا، تظن لورنا أن مقولة الرحيل في الوقت المناسب تصح من زاوية واحدة، هي أن زوجها ودّع الحياة قبل أن يشهد مصرع عبد الكريم قاسم الّذي كان يحبه كثيراً، ولم يعش بعد ذلك المآسي الّتي ضربت العراق.

تنفض لورنا رأسها المتوّج بشعر فضي قصير كمن يحاول العودة من حلم طويل، وتتساءل: لماذا هذا اليقين من أن تلك الفترة كانت أجمل فترات العمر؟ ألم تكن بغداد قاسية الحرارة بالنسبة لها؟ ألم يكن البعوض في الوزيرية عنيداً ومهلكاً؟ ألم يكن الطوز قادراً على اختراق كلّ الأمكنة؟ هذا عدا عن الحنين إلى الأهل، وتحمّل القيل والقال، ومحاولة القبض على الدينار الّذي لا يكاد يمكث في اليد؟!

مع كل هذا، تواصل لورنا سليم القول إنّ حياتها في بغداد كانت أسعد فترات عمرها، وإنها أحبت المدينة مع جواد، وبعد جواد، وعشقت ألوانها وروائحها، وكانت لها فيها صداقات ثمينة.

ثمّ إن كل حياتها الفنية الحقيقية كانت في بغداد، وفيها أنجزت أفضل لوحاتها. وهي عندما تتصفح اليوم أدلة الفنانين العراقيين وتجد أن اسم سليم يتكرر كثيراً : الحاج محمد، وجواد، ونزار، ونزيهة، ولورنا ... تشعر بالغبطة لانتمائها إلى تلك الشجرة المبدعة الوارفة.

ولو استطاعت اليوم أن توصل صوتها إلى زوجها الراحل، لقالت له بكل اطمئنان واعتزاز: لقد ربّيْتُ ابنتيكَ كما كنت تتمنّى، زينب درست في كمبريدج ونالت الدكتوراه في العلوم، ومريم أصبحت مدرسة للرياضيات، وهما زوجتان سعيدتان أنجبتا لك أحفاداً رائعين، بينهم من يرسم، وبينهم من يعزف الموسيقى، وقد سمّينا أصغرهم على اسمك...

وما زالت لورنا، كلّما مرّت بعازف غيتار على الرصيف، تتمهل لتضع في علبته قطعة نقدية، إرضاء لجواد الّذي يتابعها من هناك، حيث هو اليوم...

(*) النومي بصرة: الحامض يُجَفّف ويُحْفَظ.
(**) الطرشي: المُخَلَّل.

لورنا جواد سليم.

كريستيان جواد.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

شهادات

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

فائق حسن :

نَحَتَ يديَّ بَدَلَ وجهي

حين تعرفتُ إلى جواد سليم، قامت بيننا على الفور صداقة من نوع نادر، إذ كنا نسكن سوية في حي البارودية، وأذهب إلى بيتهم لكي نجلس تحت الدرج ونستمع إلى أسطوانات الموسيقى الكلاسيكية الّتي كان لها دور في تطوير حسّنا الفني. وكان يحضر تلك الجلسات أشقّاء جواد: سعاد ونزار ونزيهة الصغيرة.

في تلك الفترة، كنت أسافر إلى البادية لكي أرسم الأعراب وخيولهم وأزياءهم وسحناتهم الموشومة بالشمس. وفي إحدى المرات رافقني جواد في سفرة إلى شمال العراق، ووقف مذهولاً أمام عظمة آثار نينوى، وتماثيل ملكات الحضر، والحيوانات الخرافية.

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية، جاء إلى بغداد مجموعة من الفنانين البولونيين الّذين ساهموا في إغناء تجربتنا وتأجيج حمّى المناقشات الدائرة في حلقتنا. وكان منهم من يعمل ناقداً فنياً أو عازفاً أو رساماً أو مراسلاً حربياً. وقد اعتدنا أن نلتقي بهم في مقهى البرازيلية في شارع الرشيد، أو في بيتي أو بيت جواد.

ولأن جواداً كان مأخوذاً بكل ما تستطيع أن تبدعه يد الإنسان، فقد طلب منّي ذات يوم أن أجلس أمامه وأشبك كفّيّ لكي ينحت لهما تمثالاً.

قال لي إن هاتين اليدين الخشنتين تستحقان التخليد لأنهما تجيدان الرسم والنحت والنجارة والبناء والطلاء والطبخ والخياطة والبستنة!

وخلال إنجاز التمثال الّذي أحتفظ به في بيتي، ذكرى عزيزة من صديقي الراحل، جاء أحد الزملاء من الفنانين وسأل جواداً: لماذا تنحت يدي فائق... وليس وجهه؟

ونظر جواد إلى السائل نظرته الباردة الشهيرة وأجاب: وهل تستحقّ كل الأيدي أن تسمّى كذلك...؟

من حديث معه في بيته ببغداد، خريف ١٩٨٧.

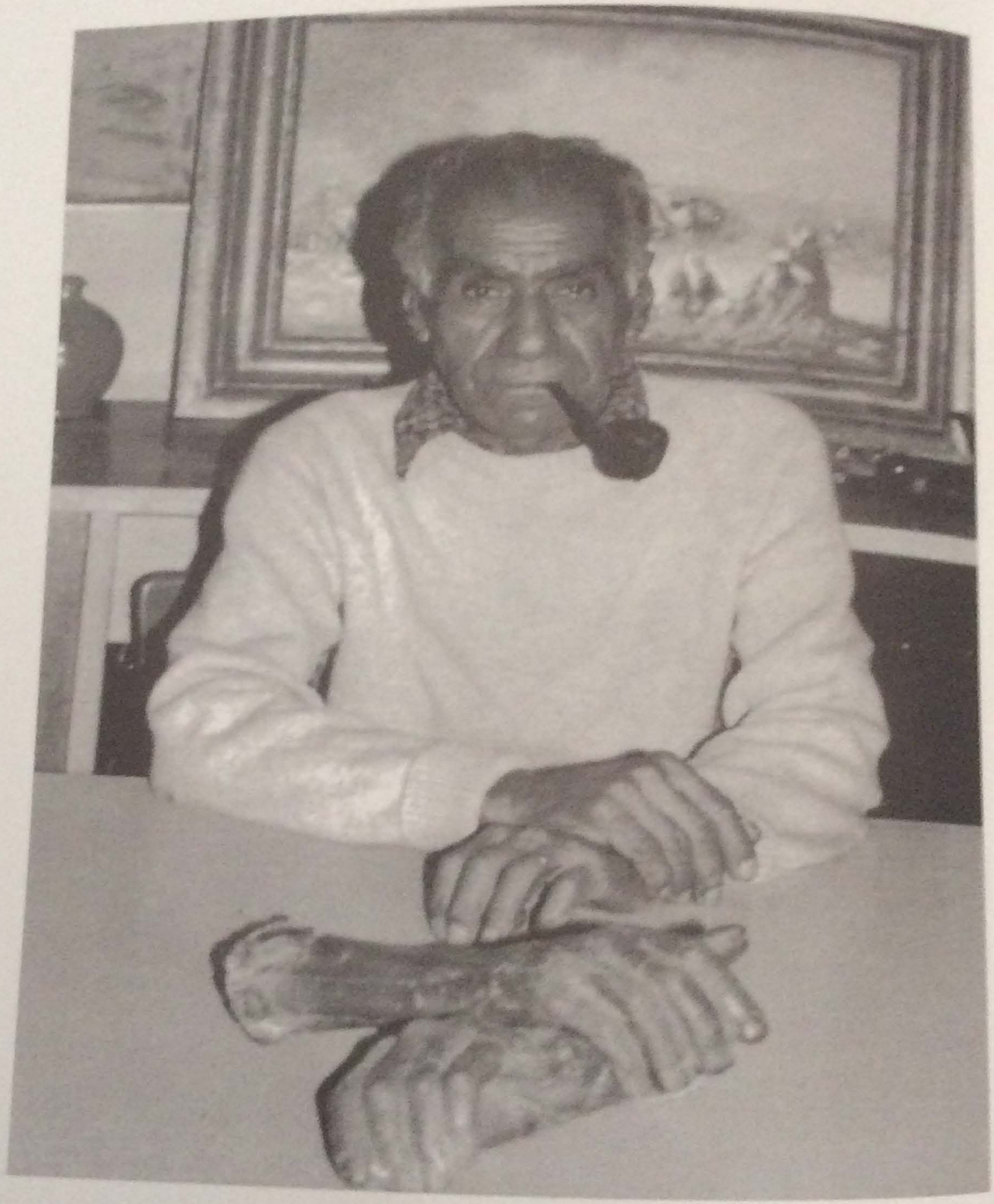

فائق حسن وأمامه «يداه» اللتان نحتهما جواد.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

محمد غني حكمة :

قناعة عندي

تدهورت حالةُ جواد الصحيّةُ بعد فترة من وصوله إلى فلورنسا، وشيئاً فشيئاً بدأت تصرفاته تتغير، فكان يقف ساهماً دون حراك أو ينظر إلى نقطة معينة ولا يجيب على أسئلتنا.

وفي ليلة متأخرة، بدأ يصرخ وهو في فراشه. ونادتني لورنا فخرجت من غرفتي، (كنا نسكن في بيت واحد)، ورأيته متمدّداً بالبيجاما وفي حالة هياج. حاولت تهدئته فلم أفلح، إذ كان يمسك بي ولا يريد أن يتركني.

مرّت ليال وجواد ساهر لا ينام وبيده الغيتار، يعزف ألحاناً غير واضحة، وهو في رواح ومجيء داخل البيت.

ذات ليلة اشتدّ فيها صراخه. ذهبت إلى ماريو، صاحب البار المجاور للبيت وكان يعرف جواداً ويعرفنا جيداً، وتوسّلت إليه أن يساعدنا في إيجاد حلّ لحالة جواد. فجاء بسيارته وحملنا جواداً ووضعناه في المقعد الأمامي، وجلسنا لورنا وأنا خلفه، وذهبنا إلى المستشفى حيث أُدخل للعلاج. وكنت أبكي طوال الطريق لرؤية أستاذي وصديقي في تلك الحالة.

بقيت أزوره باستمرار مع لورنا، وتوقف العمل في النصب، وكنا بدون فلوس. فذهبت إلى روما للتحدث مع العاملين في السفارة العراقية عن وضع جواد ووضعنا المادي. كانت ظروفاً صعبة مرت بها لورنا والطفلتان، وأنا أيضاً.

لم يحدث أن اتهمني جواد بالتآمر على عمله ، ولم أسمع بذلك، ولكنّي أعتقد أن هذه الشائعات هي من عَمَل أحد زملائنا النحاتين الّذي لفّق الكثير من الأقاويل الكاذبة عن جواد وعن حالته الصحية، علماً أنه لم يشاهده مريضاً ولم يَزُرْهُ في المستشفى، بل اختلق صوراً غير صحيحة نقلها إلى الأهل والأصدقاء بعد رجوعه إلى بغداد، وتداولتها الألسن على رغم عدم صحتها.

وها هو قناع الموت الّذي صبه له خالد الرحال موجود اليوم عندي، في مشغلي. فلقد حدثني الدكتور خالد القصاب أنه فكر،

بعد وفاة جواد مباشرة، بعمل قناع لوجهه. وكان خالد الرحال موجوداً مع بعض طلبة جواد، مثل نداء كاظم وآخرين، فطلب منهم أن يجلبوا الجبس، وبدأ خالد الرحال يصبه على وجه الميت، وكان المصور ناظم رمزي موجوداً فأخذ صوراً لذلك الموقف النادر.

وخلال زياراتي المستمرة إلى روما بعد ذلك، ومروري على بار جينو الّذي كان يتردّد عليه الرحال ومجموعة من الطلبة العراقيين والعرب، (كنت أذهب إلى هناك للسلام وشرب القهوة)، حدث أن رأيت القناع مرمياً بإهمال تحت بعض الإطارات الّتي كان خالد يعدّها لمعرض له. وشعرت بالأسف، وطلبت من خالد أن يعطيني القناع لكي أحتفظ به، فوافق.

جلبت قناع جواد إلى بغداد، وهيأت له مكاناً خاصّاً في مشغلي، ولم أرغب في استنساخه، على رغم طلب العديدين. آمل أن يقام، ذات يوم، متحف خاصّ بجواد سليم ، وعندها سوف أُهدي القناع إلى متحفه، بعضاً من الوفاء له.

· من رسالة شخصية إلى المؤلفة مؤرخة في ١٩٩٧/٣/٧.

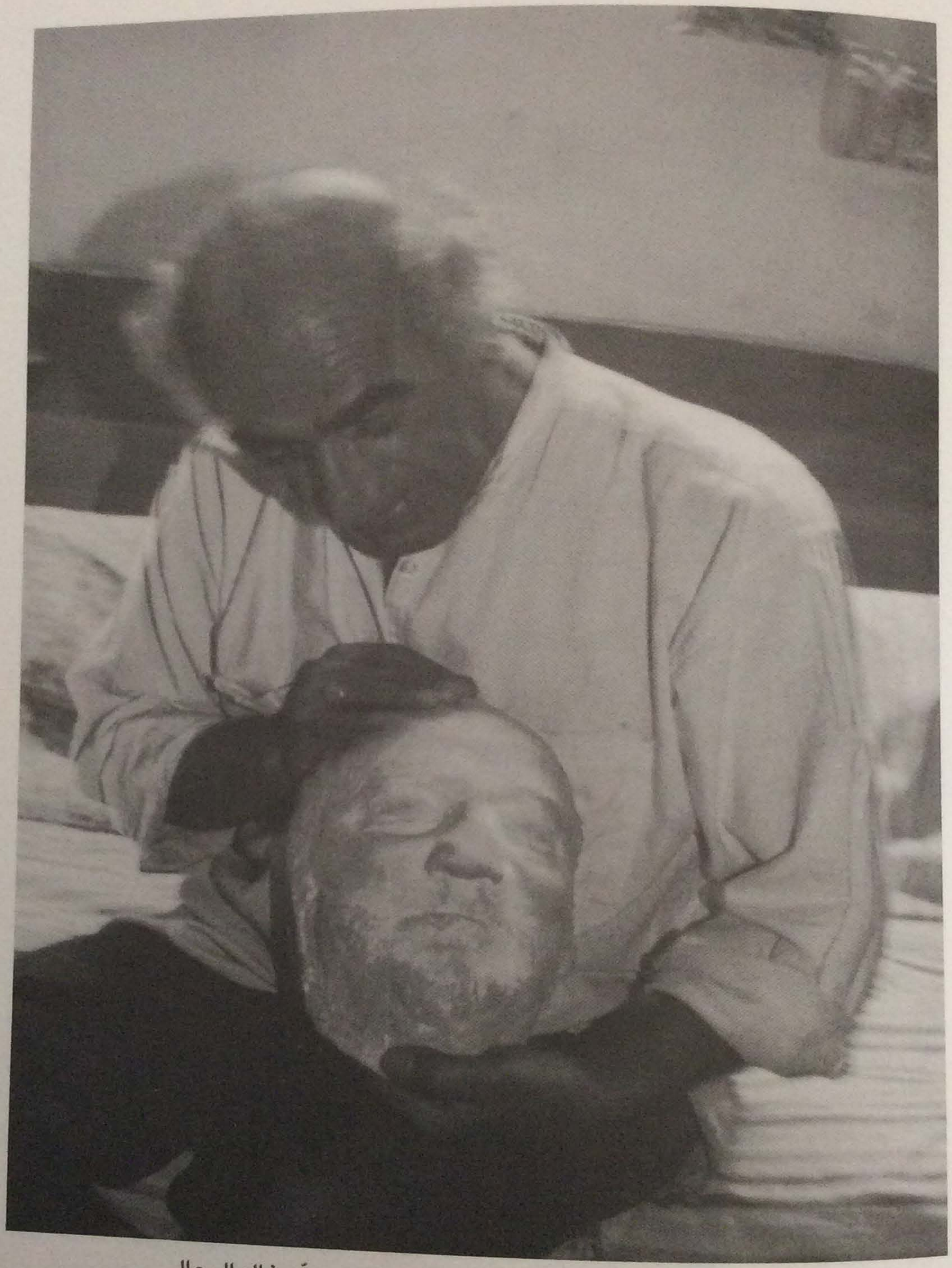

محمد غني حكمة وبين يديه «قناع الموت» الذي صبّه خالد الرحال.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

لميعة عباس عمارة :

لَوْحتُه شاخت عَيّني

... وحين سافر أستاذنا خالد الجادر لإتمام دراسته العليا، خلفه لتدريسنا الرسم في دار المعلمين العالية الفنان جواد سليم؛ أي أناس محظوظين نحن؟

جمّدني جواد سليم ليجعل منّي نموذجاً يرسمه هو، وتمثالاً أتمّ صنعه على الطين، وأوصى زميلنا محمد راسم أن يصب عليه الجبس، وأهمله راسم حتى تفطّر الطين.

كنت أجلس على مضض في المرسم وهو يتابع تخطيطه على قطعة من الخام الأسمر وكنت أشاكسه أحياناً:

- إعتنِ يا أستاذ. غداً سيقولون هذا هو الفنان الّذي رسم الشاعرة لميعة.

فيرد عليّ بهدوئه العميق:

- بل سيقولون هذه الشاعرة الّتي رسمها جواد سليم.

ويصادف في ذلك الوقت عرض فيلم «صورة دوريان غراي». وكنت قرأت الكتاب الممتع وأنا معجبة بأوسكار وايلد، وخياله، ونقده اللاذع الّذي يوافق هوى في نفسي، فأقول لأستاذي جواد سليم:

- ليت هذه الصورة تشيخ عني، مثل صورة دوريان غراي.

فيردّ عليّ بهدوء:

- من يدري؟

ويأبى جواد سليم أن يتم الصورة لتبقى مثل السمفونية الناقصة، ويأبى جواد أن يوقّع اسمه عليها، ويأبى جواد أن يبيعها وقد دارت بكل المعارض العالمية الّتي عرض فيها.

حدثني يوماً أخوه الأديب الفنان نزار سليم عن تلك الصورة فقال: كان جواد يعلقها في بيته، يشرب كأساً كل مساء وهو يتطلّع إليها... كان يحبك يا لميعة. وأسدل عليّ نزار، بكلماته الأخيرة، غيمة سوداء من الحزن. لماذا لا أعرف الناس الّذين أحبوني إلّا بعد فوات الأوان؟

تَلْفَنَ لي جبرا يوماً يخبرني أن لورنا، أرملة المرحوم جواد، قد عزمت على ترك العراق نهائياً، والصورة مع أشياء أخرى لا تنوي أخذها معها، ولا ترى أن تعطيها دون مقابل، لأن هذا لا يليق بأعمال الفنان جواد

سليم، وتقترح أن تدفعي لها ٥٠ ديناراً ثمناً رمزياً للصورة.

أخبرني جبرا بهذا في الوقت الّذي كنت فيه لا أملك خمسين ديناراً. وصار القرار أن تبقى الصورة مع جبرا. وتتابعت حياتي بغير استقرار، وسرني أن اللوحة بقيت محفوظة عنده.

ذات يوم، في عشاء في بيت جبرا ببغداد بحضور الشاعرة فدوى طوقان، أمسك جبرا بيدي ووجّهني إلى جدار عليه لوحة جواد سليم، صورتي الّتي أدركتها الشيخوخة لأن القماش الرقيق الّذي رُسمت عليه قد تهرأ، وعلى موضع القلب من الصورة تمزيق كأنه من أثر طعنة من يد حاقدة.

قال جبرا: سأكلف أحد الفنانين المختصّين أن يرمم هذه اللوحة.

وعادت بي اللحظة إلى جواد سليم الجالس بصبر وهو يتحمل تعليقاتي اللاذعة الساخرة مثل: أنت حقيقة، يا أستاذ، طلّعت روحي بهذه الصورة.

ورأيت أمنيتي المستحيلة تتحقق. فهذه الصورة تشيخ بدلاً عني بعد ربع قرن.

من شهادة صحفيّة.

لميعة عباس عمارة بريشة جواد.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

محمد مكيّة :

عُدْنا إلى فلورنسا مَعَ لورنا

أنا خريج الثانوية المركزية في بغداد، وجواد كذلك، لكننا لم نلتق إلّا بعد سفرنا للدراسة بعد التخرج، أنا إلى ليڤربول لدراسة العمارة وهو إلى باريس، بعدي بفترة، لدراسة الرسم.

كان الرسم يعتبر آنذاك ترفاً فكرياً في مدارسنا، وكانت الكلمة، في ثقافة ذلك الزمان، خيراً من ألف صورة. ورغم أن اسم جواد سليم كان معروفاً مني في تلك الفترة من أواسط الثلاثينات، لكني لا أذكر أنني التقيته.

في مدارسنا، كانت الإمكانيات متواضعة، وتدريس الرسم في بداياته، إذ كان شوكة الرسام يدرسنا في العوينة والمأمونية، وكذلك مدحة علي مظلوم الّذي كان يضع جرساً ويطلب إلى التلاميذ أن يرسموه.

أول تعارف حقيقي لي مع جواد تم في باريس عام ١٩٣٨. كنت قد جئت في إحدى العطلات من ليڤربول لتمضية بعض الوقت في باريس الّتي أحبها، ومعي جعفر علاوي ومدحة علي مظلوم. وهناك، التقيت جواد سليم وفائق حسن حيث كانا يسكنان في البناية رقم ٣٧ من Rue des Ecoles، قرب السوربون. وكان ملتقانا في مطعم صغير في الشارع نفسه يدعى «الكتبية»، صاحبه تونسي.

ذات مرة جاء جواد إلى «الكتبية» مع غيتاره، ثم نزلنا إلى الرصيف حيث عزف هو على الغيتار، وقمت أنا بجمع النقود من المارة، على سبيل الفكاهة.

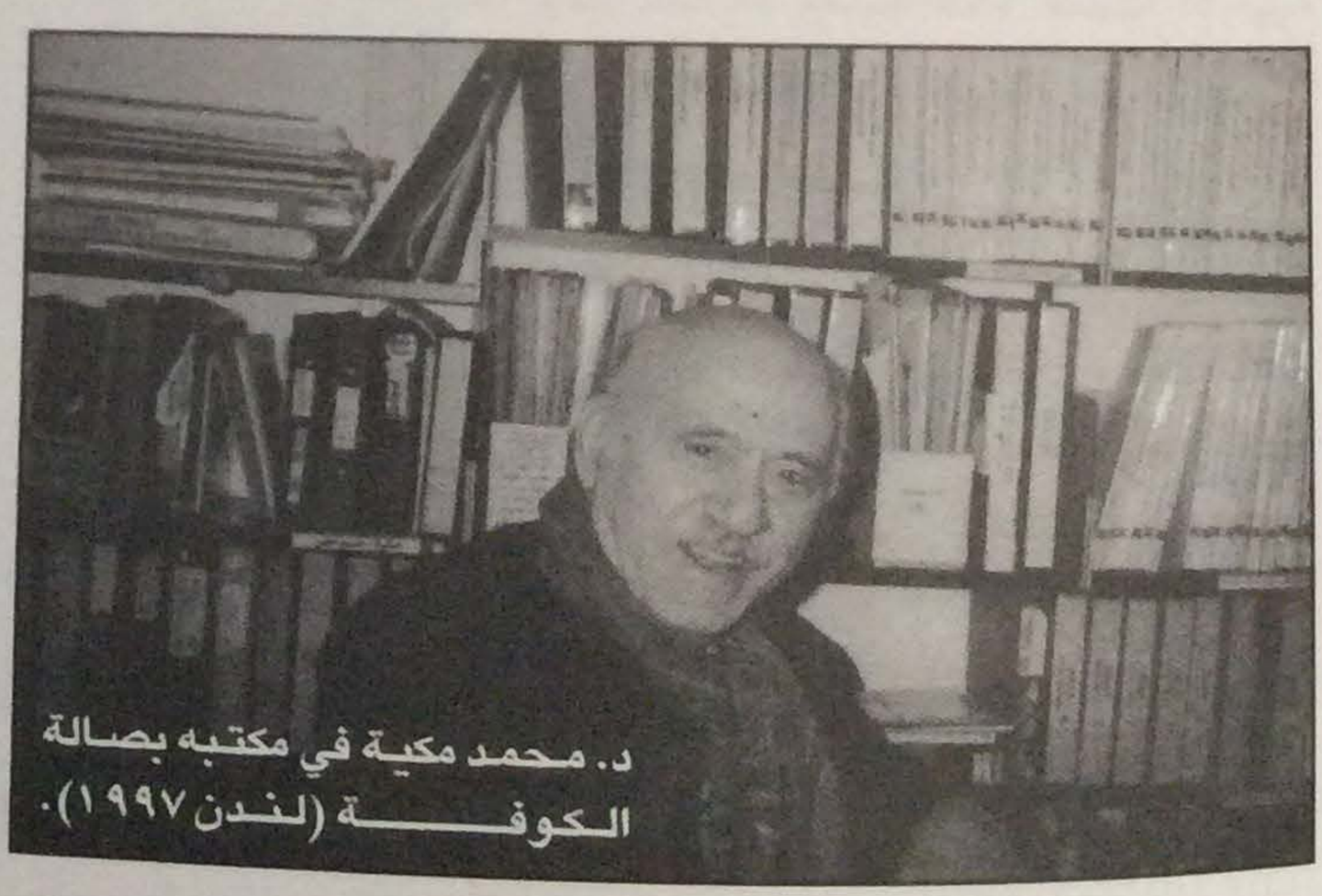

د. محمد مكية في مكتبه بصالة الكوفة (لندن ١٩٩٧).

إنّها الفترة الّتي كنا نحاول فيها أن نعبر عن نزعاتنا الفنية وعن تمردنا وعن اختلافنا عن الآخرين. لقد أطلقنا لحانا وارتدينا الغريب من الثياب. كنا في عالم آخر.

عندما عدت إلى العراق توطّدت علاقتي بجواد، وكان يجمعنا اهتمام مشترك بضرورة صياغة نظرة جديدة إلى الفنّ، وعملنا معاً انطلاقاً من هذه النظرة.

بعد وفاته، صارت لورنا تتردّد علينا نظراً لقرب بيتها من بيتنا، ولأنها تزوجت، بعد ذلك، من شخص نعرفه. وقد دعوتها لتدريس الرسم في كلية الهندسة لطلاب الفن المعماري، مع فنانين آخرين، لأنني كنت حريصاً على أن تتوازى الدروس الفنية مع الدروس العلمية الأخرى.

إن خروج لورنا لرسم بيوت بغداد هو ثمرة عملها في القسم المعماري. وكانت في البداية تذهب لرسم شارع أبي نواس والبيوت الواقعة على النهر مع طلبتها. ثم صارت تخرج بمفردها.

اقتنيت الكثير من لوحات لورنا. وأعتقد أن ما أنجزته من توثيق لعمارة بغداد القديمة عمل جيد، رغم أنها ليست في مستوى جواد. ولوحاتها اليوم مرغوبة ومحبوبة بشكل يفوق العادة. وحالما ترسل إحدى لوحاتها إلى لندن تباع فوراً.

حاولت لورنا أحياناً أن تخرج عن إطار البغداديات، وأن تجرب موضوعات أخرى. فلم تَلْقَ هذه الرسوم إقبالاً.

وعدا عن الصداقة الّتي تجمعنا بلورنا، فإن ابنتي ترتبط بصداقة مع ابنتها زينب من أيام مدرسة المنصور في بغداد. وقد كانتا من الطالبات المتفوقات في تلك الفترة، واشتركتا في تحرير مجلة المدرسة.

في إحدى سفراتي إلى البصرة والأهوار، أخذت ابنتي وصديقتها زينب سليم لكي تشاهدا تلك المناطق. فقد كانتا في سن متقاربة ومتشوقتين لرؤية كل ما هو جديد.

أخيراً، قبل أربع سنوات، قمنا أنا وزوجتي برحلة إلى باريس وفلورنسا، ودعونا لورنا معنا لإدراكنا ما تعنيه هذه المدينة الأخيرة لها. وهي قد رافقتنا في الرحلة فعلاً وأمضينا وقتاً طيباً في زيارة المتاحف والأماكن الأثرية، وبالذات في استرجاع الذكريات.

من حديث معه في لندن، شباط ١٩٩٧.

رفعة الجادرجي :

أَهِلَّة لورنا انتقلت إلى جَواد

حين أنهيت دراسة العمارة في إنكلترا وعدت إلى بغداد في خريف ١٩٥٢، عملت في مجلس الإعمار، واشتريت بأوّل راتب لوحة لفائق حسن، وبالراتب الثاني لوحة لجواد سليم. ثم بدأت أقتني لوحات للورنا سليم.

وإذا كانت أعمال لورنا الأولى غير ذات أهمية كبيرة، فإنها بدأت تكتسب أهميتها أوائل الستينيات، أي عندما بدأت ترسم واجهات البيوت البغدادية.

قبل ذلك، أدخلت لورنا أشكالاً ومفاهيم محلية في لوحاتها، مثل الأهلّة، وبها أثّرت على جواد.

وفي أواسط الخمسينيات، اشترك العراق في معرض دمشق الدولي، ورغم أنني كنت المعماري المسؤول عن تصميم الجناح، فقد منعني وزير الداخلية آنذاك، خليل كنة، من السفر. لكني شاهدت فيما بعد صور جداريات تبدو فيها الأهِلّة بأشكال وحجوم مختلفة، من عمل جواد ولورنا سليم.

بعد معرض دمشق، تكرر ظهور الأهلّة بشكل بدائي في أعمال لورنا، أمّا جواد فقد صنع بنفسه أقراطاً من الفضة على شكل أهِلّة متحركة . وعندي صور للورنا ولزوجتي بلقيس وهما تتزينان بتلك الأقراط.

السيدة بلقيس شرارة تتزين بالأقراط الفضية التي صنعها جواد على شكل أهلة (من أرشيف رفعة الجادرجي).

وأنا أعتبر العمل الّذي قامت به لورنا برسم المدينة القديمة، عملاً فنياً مهمّاً جداً، لأن لوحاتها لم تكن نقلاً مجرداً، بل أدخلت في العمل خصوصياتها كفنانة.

صحيح أننا في تلك الفترة لم نكن ننظر إلى عملها باعتباره عملاً عظيماً، قياساً إلى ما كان ينجزه جواد وفائق ومحمود صبري، لكنها بعد وفاة زوجها أصيبت بنوع من الاكتئاب انعكس على لوحاتها بما يشبه الطفرة الإبداعية، وبلغت كفاءة أعلى بكثير من السابق.

في تلك الأيام كنا نلتقي يومياً في بيوت الأصدقاء، لدى جواد أو فائق أو محمد عبد الوهاب وزوجته السيدة لمعان البكري. ولما تزوجت بدوري، وصار لي بيت مستقل، انتقلت أغلب اللقاءات إلى بيتي، وكانت جلساتنا تمتد أحياناً حتى ساعات متأخرة من الليل، بحضور زوجاتنا، ونحن نتناقش حول الفن الّذي نريد، وحول خصائص اللوحة العراقية الجديدة. هل تكون لوحة تجريدية، أم لوحة تحمل رسالة واضحة؟

مع السنوات، تجمعت عندي أكثر من مئة لوحة من أعمال جواد وفائق ومحمود صبري ولورنا، أحتفظ بها جميعاً في بغداد.

كان جواد، مثلاً، يأتيني ليقول لي إنّه أكمل اللوحة الفلانية ويريد أن يعرضها عليّ، مانحاً إياي الأفضلية في الشراء. وكثيراً ما كنت أقتني اللوحات بالتقسيط، حسب إمكانياتي المالية. وهناك لوحة وحيدة لم يعرضها عليّ جواد، واشتراها صبيح محمود شكري، هي «القيلولة».

وصبيح كان جاراً لمحمود صبري، ومن هنا بدأت علاقته بنا، وأصبحنا أصدقاء، ونحن ما زلنا نلتقي حتى اليوم بعد أن انتقلنا إلى لندن وانتقل محمود صبري إلى تشيكوسلوفاكيا، وما زلنا نتناقش، وما زال نقاشنا حاداً ومثمراً.

إنقطعت علاقتي بلورنا منذ أواخر السبعينيات. بعد ذلك شاهدتها مرة أو اثنتين في معارضها. وأنا أظن أنها كانت محظوظة مع رجل مثل جواد، إذ إنني لم أقابل في حياتي عربياً يتمتع بالليبرالية الّتي كان يتمتع بها هو. إن المرأة بالنسبة لجواد هي رفيق مساوٍ له كلياً، بدون أي تكلف. وهذه صفة نادرة جداً عند الرجل العربي.

من مكالمة هاتفية معه في لندن، حزيران ١٩٩٧.

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

فهرس الكتاب

إهداء
٧
بمثابة تقديم
١١

الجد المجهول ١٥
سليد سكول ١٩
اللقاء بجواد ٢١
لورنا في بغداد ٣٧
الزواج ٤٣
سنوات السعادة ٤٩
البغداديات ٦٣
آخر المطاف ٧١
فراغ الرحيل ٨٥
لورنا وبيوت بغداد ٨٩
الزواج الثاني ٩٥
في الريف ١٠١

شهادات

فائق حسين:
نحت يدي بدل وجهي ١٠٩
محمد غني حكمة:
قناعه عندي ١١٣
لميعة عباس عمارة:
لوحته شاخت عنّي ١١٧
محمد مكية:
عدنا إلى فلورنسا مع لورنا ١٢١
رفعة الجادرجي:
أهلّة لورنا انتقلت إلى جواد ١٢٣

مُدهشةٌ لوزا في إصرارها على الجزم بأنَّ
السّنواتِ التي قضتها في بغداد مع جواد
وبعده أجملُ سنواتِ حياتها وأمتعها بلا منازع.
مُدهشةٌ في إصرارها على ذلك كأنّما
قيظُ بغدادَ وبعوضُ الوزيريّةِ والحنينُ إلى الأهلِ
والسّعيُ وراءَ دينارٍ لا يكادُ يمكثُ في اليدِ
وتحمّلُ القيلِ والقالِ وغيرُ ذلك من أسبابِ
الضّيقِ ليستْ في شيءٍ إلى جنبِ ما وفّرتْهُ
لها مدينةُ جوادٍ ولفيفهِ من امتلاءٍ وسعادة.

9782910355692
ISBN: 2-910355-69-1